سِيْدِي عُمَر

ذكريات الشيخ محمد أبو طير

تحرير

بلال محمد شلش

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل العاشر

خيَّم ظلام السجن من جديد

خيَّم ظلام السجن من جديد

مضى على خروجي من السجن 7 أشهر، مثقلة بالهموم، وزاد عليها عشرون يوماً تنوء بحملها الجبال، فاستشهاد عادل وعماد بقدر ما هو اصطفاء من الله، بقدر ما هو فرصة تشفَّى بها أعداءُ الله.

إنها شهور وأيام لا تعيشها لنفسك، وما خُلقنا لهذا، بل كل من اختار ذات الشوكة سبيلاً في صراعه مع هذا المحتل، الذي لا يعرف إلا هذه اللغة، يعلم علم اليقين أن هذه هي الضريبة، وأنها طريق محفوفة بالمكاره. وقد جاء على لسان عامي أيالون Ami Ayalon، الذي ترأس الشاباك الإسرائيلي سابقاً، وكذلك سلاح البحرية: "أننا لا نستجيب لخصمنا إلا والمسدس في رؤوسنا".

فمن أين تأتي الراحة؟ وقد سخّر العدو كل إمكانياته لحربك؟ فأنت تتحرك بلا ظلّ، وفي العراء، وفي ظلّ هذه الأوضاع التي يحيط بها الاحتلال، فأنت لا تجد في النوم راحة، ولقمة العيش مغموسة بالتعب والترقب. والذين فرحوا بعودتك من أهلك وذويك، لا يجدون فرصتهم في العيش معك والشبع منك، وهم في خوف عليك... مع أنهم عون لك. فمثلنا كما قال الشاعر:

إذا الله لم يحرسك مما تخافه فلا السيف قطّاع ولا الدرع مانع

فإمكانيات الوقاية والحماية من سطوة العدو لا ترقى إلى تفويت الفرصة على العدو عندما يداهمك.

في يوم 1998/9/20 مضى على استشهاد المجَاهِدَين عادل وعماد عشرة أيام موجعة، وبينما أنا في طريقي إلى بير نبالا، بصحبة أخي عمر، لتقديم واجب العزاء بوفاة والد الشيخ عزام الخطيب، مدير الأوقاف الإسلامية في القدس، وذلك مع الغروب، وإذا بالعدو ينتظر فرصته للانقضاض عليَّ، ويتربص بي لاعتقالي في الضفة الغربية، بدلاً من القدس؛ لأن اعتقالي من القدس، لا يعطيهم الوقت الكافي والضاغط في التحقيق خلال 30 يوماً، إذا لم ينتزعوا اعترافاً مني، بينما الضفة تخضع للحكم العسكري، ومعهم من الزمن أربعة أشهر كاملة، يستطيعون من خلالها، أن يأخذوا راحتهم في التحقيق. فالقانون في القدس يحجم سلطة الشاباك، وإن كان لا يعجزهم شيء إن أرادوا الالتفاف على القانون، ومن هو على القانون حارسٌ لا يسعه إلا خدمتهم.

لما دخلت بير نبالا، وعلى مقربة من مسجدها، وإذا بسيارة حرس حدود تلحق بي، وبصحبتها سيارة مدنية تقلُّ رجالاً من الشاباك، فأوقفوني بحجة مخالفة السير وتجاوز سيارتهم، فقلت لهم: كيف ذلك وأنا أسبقكم، كقصة الذئب والحمل. فاقتادوني وأخي إلى مركز شرطة في مغتصبة جفعات زئيف، واحتفظوا بي، وعلى الفور نقلوني إلى المسكوبية، سيئة الذكر ومن فيها. وأجروا لي تفتيشاً سريعاً، وصادروا خصوصياتي، كساعة اليد والنقود وغطاء الرأس والحزام، وحتى رباط الحذاء. وجاءني مسؤول في التحقيق واسمه موفاز، واقتادني إلى غرفة عملياتهم، وإذا بهم كالشياطين من حولي، هذا يسأل والثاني يسخر... والثالث يطرح سؤالاً آخر، والرابع والخامس في هجوم مبرمج، دون أن يعطوك فرصة للكلام. وأنت لا تريد أن تتكلم... كل ذلك حتى يشلوا التركيز عندك، وحتى يربكوك. فمعرفة عدوك من خلال الكتب ثقافة بعيدة عن الممارسة، وأن تعايشه بأنفاسك، وتتعرض لبصاقه ورائحته الكريهة، فأنت في حكمك عليه ومعرفتك به، كالمعاين وكما يقال: "البعيد عن الطوشة [المشكلة] خيَّال".

إنها الحرب... وإنها عداوة الدهر، إمّا أنت وإمّا هم، فشمعون بيريز يقول: "إنه لا سلام لهذه المنطقة ما دام الإسلام شاهراً سيفه، وإنه لن يكون لنا قرار في هذه الأرض، حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد".

ونحن نقول للاحتلال: إن لنا معكم حساباً، وإن الله اصطفانا لحربكم، وأذكر من التاريخ أن الحجاج الثقفي لما وليَ العراق، خطب الناس فقال: "وإن أمير المؤمنين نثر كنانته، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمَرَّها عوداً، فرماني بكم". وإن الله يعلم أيها الصهاينة، أننا أمرُّ الناس عوداً، وأننا أقدر الشعوب على حربكم، فرمانا بكم طليعةً لهذه الأمة. فكم من شعوبٍ غَلَبَها الاستبداد؟ فبادت، فيا وَيْحَكُم، ويا وَيْحَ مَنْ ألقوا أنفسهم في دربنا!! فإنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾[1].

حاولوا جاهدين، منذ اللحظة الأولى، أن يعرفوا التنظيم عن طريقي، وأن يحيطوا بالسلاح والتسليح، وأن يعرفوا خارطة العلاقات ما بين عادل ومحيي الدين وأنا، وأن يأتوا على تنظيم القدس والضفة. ولعشرة أيام، وقد حرموني من النوم، وهم يتناوبون عليَّ ليل نهار، وعندما ينفد صبرهم يوجعونك بما لا يطاق، يضعون القيود

[1] **القرآن الكريم**، سورة الصافات، آية 177.

قريباً من المرفق، وفي عملية ضغط تفقد من خلالها أعصابك. فلا شبح الموزة، ولا الهزّ، ولا الضغط على العمود الفقري، بمثل هذا العذاب، حتى حطم صوتي وصراخي صمت الزنازين وجدرانها.

وفي اليوم الثالث من التحقيق، ولما نفد صبرهم، جاءني يوفال ديسكين Yuval Diskin، وقد أصبح رئيساً للشاباك فيما بعد، وحاول حملي على الجلوس على الكرسي، فقلت له: أجلس أرضاً؛ لأن ضباطك على قدر كبير مِنْ سوء الأخلاق، كالكلاب المسعورة، فتميزوا غيظاً، وانتظروا فرصتهم فيما بعد، فلما فشل في الحوار معي قال لهم: اكسروه. ولعشرين يوماً، وصراخ موسى دودين مع صراخي يطرق أبواب السماء. أما المجاهد تيسير سليمان، فكان أصبر منا على المحنة والابتلاء، وسمعتهم يقولون: "ما قال كلمة أخ"، أي أنه لم يظهر لهم توجعاً، بل أغاظهم، ولم يشمتهم فيه.

كان التحقيق يدور حول رسالة بعثتها للأخ عادل عن صفقة السلاح التي ذكرتها مِنْ قبل مع الأخ عمر سعادة، وفيها الآر بي جي وبقية العتاد، وعن بندقية من طراز أم 16، فواجهوني ببعض الأوراق التي تخدمهم في التحقيق، والتي كنت قرأتها في بيتي من قبل، وعثروا عليها لما اقتحموا على عادل بيته. وكانوا يسابقون الزمن حتى يصلوا إلى مجموعة أبي علي العباسي، وقد وردت عندي أسماء تبادلنا الرسائل حولها بشأن تبرئتها من الظلم الذي وقع عليها داخل السجون. فكان ظنّ المحققين أنهم مجموعة، وأني نظمتها، فقلت لهم: إن مثلي لا ينظم، ليس هذا من اختصاصي. وأتوْا بهم، وأوجعوهم ضرباً، وقالوا: لا علاقة لنا بالشيخ، وقلتها من باب النكاية بالمحققين، والالتفاف عليهم: أعطيت هذا مسدساً، وهذا كلاشينكوف وهذا مسدس وهذا... وقد أكلت المحققين العربدة، ويريدونها ساخنة، ولثلاثة أيام والضغط مستمر على أشده، وفاقد الشيء لا يعطيه، حتى جاءني مسؤول التحقيق في جهاز الشاباك برتبة جنرال، يقال له "أبو شريف"، وما هو بشريف، فقال لي: أريد الحقيقة؟ فقلت له: هؤلاء الناس لهم قصة في السجون، وقع عليهم ظلم، وأنت أدرى بهذا؛ لأنه مِنْ ضمن ألاعيبكم، فأطلق سراحهم، وقصة السلاح افتعلتها؛ لأن ضباطك يريدون مني تنظيماً أو الاعتراف على مجموعة، وهذا ليس من اختصاصي، وأخيراً أطلق سراح هؤلاء الشبان.

وأخيراً لما واجهوني بهذا الكم من الرسائل، وكأنه سدّ في طريقه إلى الانهيار، وأنت تحاول جاهداً أن تحول بين ذلك، اعترفت بعلاقتي مع المجاهد عادل، وأننا كنا نريد أن نسمم مياه المستعمرات، وتسميم الأجواء من خلال رديترات السيارات، واعترفت على مسدس كان عندي، وواجهوني برسالة بعثها أبو همام النتشة إلى عادل عوض الله يقول فيها: إن الشيخ عمر المختار في طريقه إلينا ببندقية أم 16، وطال التحقيق، حتى قالوا لي في يوم قرار الحكم: سلمنا البندقية ونحن على استعداد أن نخفف عنك الحكم، فأنكرت عليهم ذلك.

كان المجاهد أبو الفداء قد أعطى أمي رحمها الله، اسماً حركياً هو "السفينة"، واسمي الحركي كما اختاره لي في "الكتائب"، والمشروع الجهادي هو عمر المختار، وكانوا ينادونني بسِيدي عُمَر... كما يحلو للأخ المجاهد باجس نخلة، والأخ النائب (أبو مالك) أحمد مبارك.

وفي يوم من أيام التحقيق، والشر دائماً في عيونهم، قال لي أحد المجرمين من المحققين: اليوم ستبكي أختك دماً، والمقصود أم المثنى زوجة سلمان أبو عيد. فقد مكروا به عن طريق أحد عملائهم بسلاح مفخخ في صفقة شراء، وانفجرت بهم في السيارة، واستشهد زهران إبراهيم زهران، وأصيب سلمان وسليم، ونقلا إلى جهاز الأمن الوقائي، بدلاً من المستشفى. وخضعا للتحقيق حول صلتهما بالشهيد محيي الدين الشريف، وساوموهما من أجل ضرب الحركة من الداخل، واللعب على أوتار الخلافات، ولكنهما صبرا على هذا الابتلاء، وتعافيا من آثار الانفجار. وكما يقال: "اللي [الذي] له عُمُرْ... لا تضيمه شدة".

ولي تعليقٌ على هذا، يخرج علينا أهل الحل والعقد في رام الله، إنْ صحّ أن نقول عنهم أهل حلٍ وعقد، ويُفَصِّلُون لنا ثياباً لا تقاس على سلمان أبو عيد، والشهيد زهران، والأخ سليم، ويرمون هذه المجموعة بالاتهامات الباطلة. وأقول: بكل ما شغلتم من مواقع... هيهات أن تلحقوا بركب هذه المجموعة! لقد أوقعتم ظلماً، ورميتم زوراً وبهتاناً، وحتى الآن لم تعتذروا، وكأنكم في منأى عن الحساب، فالوحَا ثمّ الوحَا من قبلِ أيْ يأتي يوم الحساب.

ثمّ أشاروا لي عن علاقتي بالأخوين جميل صرصور من البيرة، ومحمد صرصور، وأنكرت صلتي بهما، وقالوا والله: نحن "نُنَشّن" عليهما. وأعترف أنني ذكرت الأخ (أبا سالم) جميل في شأن المال، وفيما بعد اعتقلوه من المطار وأتوا به. وحضرت أمي

للتحقيق وأنكرت أمي صلتها مع أي طرف، وجلست وإياها على طاولة التحقيق في غرفة العمليات، ونحن متقابلان إذ رفضوا أن نجلس جنباً إلى جنب، ثمّ تركونا وحدنا، فقالت تسأل: في شيء هنا؟ وتقصد وجود من يتجسس علينا، فقلت لها: وهل يتركوننا هكذا؟ ففهمت، ودار الحديث لساعات عن البيت والأهل والأولاد، وهم يتربصون بكلمة تسقط من بين الثنايا، وكانت صائمة ليوم الإثنين، وقد تمنطقت بملابسها، وهي لا تعرف إلا الشهادة، وقالت لعلي ألقى الله وأنا صائمة.

ثمّ دخل علينا الأخ المجاهد جميل صرصور، وقبّلها وقبّلتهُ. وانتهى الأمر بي أني تحملت إفادتها، واعترفتُ أنها نقلت المال للشهيدين عادل وعمر سعادة، ضمن صفقة تخرج بموجبها من يومها إلى البيت. وفعلاً مع المساء خرجت من المسكوبية إلى البيت، رحمها الله، وقضى الأخ أبو سالم حكماً، ثمّ أبعد إلى أمريكا.

وفي جلسة تحقيق، قال لي قائد طاقم التحقيق، واسمه مارتن، وضباطه يسمعون: شيخ أبو طير أنا متأسف للذي آذيناك به، وهذا عملنا، وخارج التحقيق، فإني أقول لك على سماع ضباطي هؤلاء: كان لي الشرف أن أحقق مع الشيخ أبو طير. وقال آخر: "سلامة خيرك، إحنا الذي أخذناه منك، أخذناه من قبل من الأوراق، وتعلمنا منك أكثر مما حققنا معك". ثمّ قال لي هذا الجنرال: يكفيك هذا، واذهب للتقاعد، اذهب إلى العمل السياسي والإعلامي، واترك العمل العسكري لغيرك بعد هذا المشوار. لكن هؤلاء القوم، لا يفرقون في حربهم بين السياسة والعسكرة، وذلك عندهم سواء؛ لأننا لما ذهبنا للانتخابات والعمل السياسي... جددوا لنا الحبس من جديد، وبحرب أشد وأنكى، وزيادة على ذلك، طردونا من بيوتنا وديارنا وحرمونا من أهالينا.

ومارتن هذا كان مسؤولاً عن التحقيق، وقائد غرفة العمليات سنة 1998، وهو المسؤول المباشر عن تصفية الشهيد عبد الصمد حريزات، في أثناء التحقيق معه. وكان مما قاله لي عن حالة التراجع، التي وصل إليها الجندي الإسرائيلي، وعن الخلل في معنوياته والاهتراء في قوته، إنه ما إن يخرج من بيته متوجهاً إلى الجبهة حتى يبدأ بمهاتفة أمه وأبيه "إيما إيما، آبا آبا" (كلمات عبرية)، ليطمئنهما على حاله، بينما كنا في أثناء الحرب على الجنوب اللبناني سنة 1982 يمرُ علينا الشهر والشهران والثلاثة ولا نتحدث إلى عائلاتنا، ولا نتواصل معهم. وأقول: ولربما منعهم من ذلك عدم وجود الهاتف المحمول في تلك الأيام.

كل أيام التحقيق هذه كان المجاهد أحمد عطون في التحقيق، ولم أكن على علم بأنهم اعتقلوه، ولما علمت باعتقاله قالوا لي: كيف لا يعتقل وهو رفيق دربك، وصاحبك في التنقلات... ولقد صبر رضي الله عنه ولم ينالوا منه، فحولوه إلى الحبس الإداري... وهو بحق لم يدخل إلى الخط الساخن.

والتقيت من خلال هذه المحنة في الزنازين، مع الحبيب المجاهد الشيخ صالح العاروري، ولما خلعت عني ملابسي، استغرب للحالة التي وصلت إليها، ولحال جسمي الذي يعرفهُ مكتنزاً، فحمدت الله، وقلت: "إنْ ظلّ العود، اللحم يعود". وقال لي الشيخ عن استشهاد عادل وأخيه: الحمد لله الذي شرفهما بالشهادة، والرسول ﷺ أول مَنْ استشهد معه، مَنْ يحبهم مِن صحابته وآل بيته: حمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، ومصعب بن عمير.

قضيت في زنازين التحقيق 120 يوماً (أربعة أشهر على التمام)، وأحتسبها عند الله، وكل مَنْ أتوا بهم للتحقيق من سجن عسقلان، وهم موسى دودين، ومحمود عيسى، وماجد الجعبة، وتيسير سليمان، صبروا على هذه الأيام... ثمّ أتوا بعد ذلك بإبراهيم العباسي ومجموعته، شعيب أبو سنينة، ومحمود إدريس، ورجب الطحان. والتحقيق مع هؤلاء مع الإقرار بفعالياتهم، خفف عني لظنهم أنّي صيد ثمين، فوجدوا الصيد الثمين، عند المجاهد أبي علي العباسي.

وفي يوم من الأيام، دخلت على المجاهد محمود عيسى، وهمه وقلقُهُ عليَّ بشأن الطعام؛ لأن طعامهم في التحقيق لا يساعد على المصابرة. والمؤذي أكثر، أنهم يقدمون لنا الطعام في زنازين، تنضح رائحتها الكريهة بما لا يطاق، والمنبعثة من المراحيض وتزكم الأنوف. وقد فعلوها معي، إذ بيّتوني ليلة من المساء حتى الصباح المتأخر في زنزانة أرضها ماء، وهي تطفح بالغائط، وأنّى لرائحتها ألا تفوح؟ وكنت طوال الليل أحاول جاهداً أن أَقِيَ نفسي هذه الرائحة، بكم قميصي، ولكن هيهات!! هذا عدا الشبْح في الليل والنهار، والقيود في الرِّجْلَين والمعصَمَين.

وفي ليلة 27 رمضان رأيت فيما يرى النائم: أني في مطبخ بيتنا، وله باب على القبلة، وقبالة الباب قِدْرٌ كبيرة فيها لحم قد نضج، لكن ما زال مرقُه ينتظر الهدوء بعد الغليان. ومشيت طريقاً على قارعتها رجلٌ أعرفه، اسمه فرّاج، بصحبة الأخ عايد دودين، فأولتها لما استيقظت وقلت: نضج اللحم الانتهاء من التحقيق، والباب مفتوح على الطريق، وفرّاج

فَرَجٌ إن شاء الله، وعايد، هو العودة إلى سجن عسقلان... وفعلاً قلت للسجان: أنا من يومي هذا خارج إلى عسقلان، فقال: ماذا تقول؟ اليوم لا توجد نقليات "بوسطة". وبعد صلاة العشاء من المساء، وإذا به يقول لي: تجهز للسفر، وفوجئ بما قلت له. وغادرنا المسكوبية، أنا وأبو علي العباسي، وقال لي: كنت أتوقع أن ألتقيك؛ فجمعتنا أيام السجن أكثر مما اجتمعنا خارجه.

لقد كانت الضربة موجعة، وأتت على قيادات العمل من الشمال إلى الجنوب، أتت بالقائد الميداني أبو أيسر نزيه أبو عون[2]، والمجاهد فازع صوافطة، والمجاهد عماد ريحان[3]، وآخرين لا يتسنى ذكر أسمائهم جميعاً.

في سجن عسقلان من جديد:

حملتنا "البوسطة" من المسكوبية في القدس إلى سجن الرملة، حيث ما يسمى "المعبار" ونمنا ليلتنا، وفي الصباح كان الرحيل إلى سجن عسقلان. أما الأخ أبو علي العباسي، فنقلوه إلى سجن شطة شمالاً. ولما وصلتُ إلى ساحة السجن بعد التفتيش والإجراءات، استقبلني مَنْ في الساحة كأنه لم يسبق ذلك وداع. فاستقبلتني دموع الحاج أبو السكر، والمجاهد عبد الحكيم حنيني، والحاج ماجد الجعبة، وأبو صهيب العجولي، وهارون ناصر الدين، وفراس جرار، ومن في الساحة جميعاً، وقد أوجعهم ما جرى لي. واستقبلتني غرفة 11 قسم (3)، وفيها الإخوة عصام قضماني[4]، ومحمد الرشق،

---

[2] **نزيه سعيد أبو عون (1962–):** ولد في قرية جبع جنوب جنين. انضم مبكراً لجماعة الإخوان المسلمين. نشط في كتائب القسام مبكراً، واعتقل لذلك، يوم 1993/6/10، وحكم عليه بالسجن أربعة أعوام. اعتقل ثانية يوم 1998/9/29 لدوره القيادي في كتائب القسام ضمن المجموعات التي ترأسها الشهيد عادل عوض الله، وحكم عليه بالسجن لمدة ستة أعوام. اعتقل في سجون السلطة الفلسطينية، وهو كتابة هذه السطور معتقل إداري في سجون الاحتلال.

[3] **عماد يوسف ريحان (1967–):** ولد في بلدة تل جنوب غرب مدينة نابلس، ودرس المحاسبة. اعتقل عدة مرات لنشاطه في صفوف حركة حماس في أثناء الانتفاضة الأولى، واعتقل في 1994/4/6 بتهمة الاتصال بالقائد الشهيد عماد عوض الله. اعتقل في سجون السلطة الفلسطينية، بعد تنفيذ كتائب القسام لعملية يتسهار Yitzhar في آب/أغسطس 1998. أعادت قوات الاحتلال اعتقاله واتهمته بالمسؤولية عن الخلية القسامية التي نفذت العملية، وبعد عجز الاحتلال عن انتزاع اعتراف منه حكم بالسجن لمدة عشرة أعوام. استشهد شقيقاه القساميان عاصم ومحمد في أثناء وجوده في السجن، وبعد الإفراج عنه أعاد الاحتلال اعتقاله إدارياً لمدة عام ونصف.

[4] **عصام طلعت قضماني (1975–):** أسير مقدسي من الرام. نشط في كتائب القسام، وأسهم في عملية لأسر جندي صهيوني يوم 1994/7/6. أصيب يوم 1994/8/12 في أثناء عملية استهدفت منزل شارون داخل البلدة القديمة في القدس في رأسه، واعتقل في ذات اليوم، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18، وأبعد إلى قطر.

وخليفة الصغير المبروك، وإبراهيم الحزيبي، وزين الدين شبانة، والمجاهد حسن الزاغة[5]. كان ذلك بتاريخ 1999/1/21، حيث دخلنا على سنة جديدة.

هموم السجن من جديد، وإدارة السجن تلاحق الأسرى بإجراءاتها الظالمة، ولن تبرح حتى تأتي على إنجازاتنا، التي دفعنا ضريبتها من خلال الإضراب عن الطعام، ومعركة الأمعاء الخاوية. واستنزفت أيامنا وأعصابنا؛ لأنك من خلال هذه المعركة، لا تستطيع القراءة أو مزاولة أي نشاط؛ لأن في ذلك إرهاقاً وتعباً على العينين أكثر من أيّ شيء. وأن تحافظ على صلاتك شيء عظيم.

ما كدت أتعافى من ضيق الزنازين، وآلام التحقيق، وإذا ببلاغ جديد لسفرية جديدة إلى المسكوبية. وأُخضعت للتحقيق مرة أخرى، على اعتراف من الأخ عاصم سيد أحمد، يتهمني أني نظمته، وأني طلبت منه أن ينقل رسالة من سجن الخليل إلى سجن رام الله للمجاهد عادل عوض الله، فأنكرت ذلك؛ وأعذرت الأخ عاصم لمرضه. ومكثت واحداً وعشرين يوماً في الشبح، والتحقيق على ما في هذه الرسالة، التي مضت عليها أربع سنوات، ثمّ رجعت إلى عسقلان، وحصل فيه مشكلات جديدة وصدام، تطور إلى ضرب بالأيادي والعصي والغاز، ما بين المجاهدين وإدارة السجن.

متاعب الزيارة و"دفاش":

زيارة الأهل يكفيها العناء الذي يرهق العائلات، فعائلات الأسرى من الآباء والأمهات، والإخوة والأخوات، والأبناء والزوجات، ترى في يوم الزيارة هذا، يوم جهاد يبدأ من قبل صلاة الفجر، ولا ينتهي مع الغروب، بل وإن بعض العائلات لا تعود إلى البيت، إلا مع منتصف الليل. نعم جُمُوع الأسرى تعاني في السجون، ومعلوم لدينا أنه لا راحة في السجن مع إدارتها، ففي كل لحظة نحن عرضة للمواجهة، وقد تتطور الأمور كثيراً، لكن معاناة الأهالي طال انتظارها، وكم من الآباء والأمهات قضوا نحبهم، والحسرة في قلوبهم؟

---

[5] **حسن مصطفى الزاغة** ([1976]–): ولد في مدينة نابلس. انتظم في صفوف كتائب القسام ونفذ في 1994/4/23 عملية استهدف فيها ضابط شرطة صهيوني فأصابه بجراح وأصيب في أثناء انسحابه في قدمه. اعتقل وقضى بسجون الاحتلال عشرة أعوام حصل خلالها على درجة البكالوريوس. ناشط حقوقي في مجال الأسرى، اعتقل بعد ذلك عدة مرات في سجون الاحتلال وسجون السلطة الفلسطينية وحكم عليه بالسجن عامين.

في إحدى زيارات الأهل، ضبطت أمور ممنوعة، يقوم الأهالي على تهريبها، وهي لا تستحق هذه "البَهدلة [العقوبة]"، لكن وقاحة السجَّانين القائمين على الزيارة، تفتعل المشكلات، بل هم متخصصون في ذلك. فأن تأتي بالعائلات لزيارة الأسرى، فخط أحمر ساخن، تقوم الدنيا عندهم بسببه ولا تقعد، فقام أحد الإخوة واسمه محمد دوّاس بطعن ضابط عدد السجن، والآن لا سبيل لكبح جماح إدارة السجن، في ظلّ ضابط أمن سافل وحاقد اسمه دفاش، وتعني بالعربية العسل، ومن أين يأتي العسل؟ هذا الضابط قاد عملية اقتحام للقسم الذي حدثت فيه المشكلة، واعتدى على من فيه بالضرب، وكان من بين القاطنين فيه الشيخ صالح العاروري والشيخ سعيد زعرب. وتطور الموقف، وعوقب القسم، ودخل الإخوة في إضراب عن الطعام، استمر عشرة أيام، وقيادة السجن في الداخل والأقسام الأخرى، من فتح وحماس والجهاد والشعبية، عجزت عن نصرة إخوانهم هؤلاء، ولو بيوم تضامن يضربون فيه عن الطعام، وأن تدخل حماس وحدها في المواجهة في هذه الخطوة، فالموقف ضعيف. ولأول مرة في عسقلان تموت النخوة، وإن تكررت من بعد ذلك، وعسقلان فيما مضى تاريخه حافل، ويرجع هذا الوضع المهزوم لقيادات التنظيمات، فقد آثروا حياة الدعة، وقبلوا على أنفسهم القعود عن نصرة إخوانهم، حتى إن أبناء فتح في قسم (12)، الذي حصلت فيه المشكلة، طلبوا مغادرة القسم حتى لا يلحق بهم العقاب المفروض على غرف حماس.

خرجت إلى الناس من أبناء حماس في الساحة، وجلست مع المسؤولين والقائمين على التنظيم، وقلت لهم: كفاكم هذا العجز، وتفضلوا بتقديم الاستقالة، وسنعلن حالة طوارئ تقودها لجنة سرية، هي المسؤولة عن سياسة التنظيم، وحتى نرى ردة فعل الإدارة، وقد قصدنا أن تعلم أننا في الساحة لا يمثلنا أحد، وحتى لا تعلم إدارة السجن سياستنا. وفعلاً، لقد حاولت إدارة السجن أن تتعرف على هذه السياسة، وكذلك الفصائل، ونجحنا إلى حدٍ ما في اختراق الموقف، وقمت بزيارة إلى الإخوة في قسم (12)، وعملنا على الخروج من هذه الحالة، وما طالت لأن الترحيلات والتنقلات في السجن تطورت، وافتتحت مصلحة السجون سجناً جديداً، اسمه "هدريم"، وجعلت منه قسماً خاصاً بحماس، واتبعت فيه سياسة العزل. ونقل الشيخ صالح العاروري، والشيخ سعيد زعرب، ومجموعة كبيرة كلها من حماس إلى ذلك القسم. وفرضت عليه سياسة جديدة من القهر، وصادروا أمتعتهم وملابسهم وحاجيات كثيرة، ولأول مرة تفرض عليهم

الزيارات من وراء الزجاج، ومن خلال الهاتف، ولم يكن معهوداً من قبل في السجون، وأضرب الإخوة عن زيارة الأهل، وطال إضرابهم، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

حصل من خلال الترحيلات صدام وضرب بالأيدي بين أبنائنا وضباط إدارة السجن. وذات مرة كان الأخ المجاهد طه الشخشير[6] في زنزانة للترحيل، ودخل عليه ضابط أمن السجن ونائبه، فهجم عليهما كالجمل، وخلع عن أكتافهما الرتب، وكسر حوض ضابط الأمن، ولأربعين يوماً وهو في المستشفى يعالج. وكذلك نائبه الوقح تمكن منه الأخ طه وهشم رأسه، وهو مَنْ ذكرته سابقاً باسم دفاش، ثمّ قام بضربه كذلك المجاهد فازع صوافطة. وهجمت الإدارة بالعصي والهروات والغاز على المجاهد طه، وما أفلحت في تخليص الضابطين من بين يديه، إلاّ بعد جهد، حصل هذا في سنة 1999، في عسقلان، وجزى الله الأخ طه عنا خير الجزاء.

حزب الله والطرد من السجن:

عندنا في السجن شبان من الشيعة، محسوبون على حزب الله وحركة أمل اللبنانيين، هؤلاء الشبان لهم خصوصيتهم في معاشهم، وعلى صعيد عبادتهم، فهم لا يشاركوننا في صلاة الجماعة ولا الجمعة، وغالباً لا يصلون جماعة في غرفتهم، فلهم غرفة خاصة بهم، والعلاقة بيننا وبينهم قائمة على الاحترام، ومشروعنا المقاوم يلتقي مع مشروع المقاومة في الجنوب اللبناني، ونعدُّ رؤيته ناضجة في فهمه لأبعاد الصراع مع العدو الصهيوني.

وبيننا وبينهم خلاف عقائدي، إن اقتربنا منهم أبعدوا عنا، وأي قرب منهم لم يكن على حساب الصحيح في منهجنا؛ لكن لأجل تضحياتهم من أجل قضايا الأمة، حَرِصْنا على توفير أحسن العلاقات معهم، وخدمتهم بما نستطيع، وبالنسبة لي بقيت على تفهم وقرب منهم.

على أي حال، في ليلة مِنَ الليالي، اقتحمت إدارة السجن غرفة 7، وهي لأفراد حزب الله، ومعهم عدد من الإخوة في الجهاد الإسلامي، وباغتتهم في سُرُرهم، وأخرجت من بين

---

[6] **طه عادل الشخشير** ([1965]–): ولد في مدينة نابلس، شارك في فعاليات الانتفاضة الأولى واستشهد فيها شقيقه ياسين. بعد استشهاد شقيقه بدأ بصناعة قنابل بدائية واستهداف قوات الاحتلال فيها. في 1992/12/1 اقتحمت قوات الاحتلال بيته في منطقة رأس العين واعتقلته، وحكم بالسجن المؤبد و15 عاماً. خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

أيديهم ستة هواتف محمولة، وجميع مَنْ في السجن لا يوجد عندهم هاتف محمول واحد، حتى مَنْ معهم مِنْ أهل الغرفة من شبان الجهاد لا يعلمون بها، ولم يلاحظوا عليهم أنهم يتواصلون مع أهاليهم، وأنا أحترم هذه السرية عندهم. لكن أناساً يعيشون معك ولا يفشون سرك، ولهم حقّ الجيرة والعشرة، فما المانع أن تكرمهم، خاصة وأنهم يوفرون لكم زيارة أهاليهم؟ فعائلاتنا من غزة ومن القدس، هي التي احتضنت أبناء حزب الله في الزيارات والتواصل.

وفي الصباح، تعرض السجن لعملية تفتيش واسعة وتخريب منظم، واتبعت الإدارة ومصلحة السجون سياسةً، لم تكن موجودة من قبل ولا مقبولة، ألا وهي التفتيش العاري لجميع الأسرى... وهنا توترت الأوضاع، وقالت إدارة السجن للجنة الحوار الفصائلية: إذا كانت هذه الكمية في غرفة واحدة فما بالكم بباقي غرف السجن؟ وردت لجنة الحوار إنه لا يوجد عندنا أبداً، والسجن والفصائل فوجئوا بهذا الأمر، كما فوجئتم أنتم... لكن هيهات للإدارة أن تقتنع!!

كان الأخ عثمان مصلح (أبو الناجي)، هو ممثل المعتقل عن فتح والفصائل، واتخذت قيادة فتح، ومنها أحمد عوض كميل، وفيصل أبو الرب، ويوسف عزرائيل مع أبي الناجي، وتنظيم فتح، موقفاً من حزب الله، وطالبت بطرد أفراده من السجن. تدخلنا في الأمر، ورفضنا منطق الإخوة في فتح بهذا الشأن، وقلنا لهم: لن نسمح بمرور هذا الأمر. وفي يوم الجمعة وقفت خطيباً ودافعت عن حزب الله، وقلت عنهم أنهم لا يقلون عنا شرفاً في الدفاع عن القضية الفلسطينية، وهم قوم في قطيعة من أهاليهم، ومَنْ يعتدي عليهم... يعتدي على شباب حماس.

عندها توترت الأوضاع بيننا وبين الإخوة في فتح، وطالبت فتح على إثْر ذلك بالفصل بين أسرى منظمة التحرير، وأسرى حماس والجهاد وحزب الله، وقالوا لإدارة السجن: نحن مع السلام، وبيننا وبينكم صُلح وسلام. ونادى أبو الناجي بأعلى صوته على يوسف عزرائيل: لا أُريد أن أرى أحداً من حماس هنا. وتمّ لهم ذلك، فقد وافقت إدارة السجن على طلباتهم، وفصلوا بيننا ووضعوهم في أقسام خاصة بهم. ولم يكتفوا بذلك، بل طالبوا بطردنا إلى سجون أخرى. وكان لهم ذلك، فقامت إدارة السجن بترحيلنا إلى سجني شطة ونفحة، وأتت بأسرى منظمة التحرير من نفحة إلى عسقلان، وهنيئاً لأبي الناجي وعزرائيل وأبي الرب ذلك... "ويا فرحة ما تمت"، فما إن وصل أسرى غزة

إلى عسقلان، وطالبوا بالانتخابات، وتولّى أهل غزة التنظيم، من أبي الناجي وعزرائيل وأبي الرب، حتّى دبت الخلافات بينهم، حتى قالوا "ساق الله على أيام زمان"، فَعِشْرَةُ أهل الضفة من حماس أرحم علينا مِنْ عِشْرَةِ أهل غزة من فتح. وعلى الباغي تدور الدوائر، وأذكر أن الأخ المجاهد توفيق أبو نعيم حذرهم من ذلك وأنكر عليهم، وحمّلهم مسؤولية هذه الخطوة.

وكذلك ما بعد الحسم، شبان فتح هم من دعا إلى الانفصال، وطالبوا بإلحاح، وافتعلوا المشكلات، وألقوا بالتهديدات إذا لم يتم الفصل، وكان بعض أفرادهم يقولون لإدارة السجن: إنهم في صلح مع "إسرائيل"، وهم مع السلام، بمزاج يخطبون به ودّ إدارة السجن، على حساب الكل الاعتقالي.

سجن شطة:

بعدما تمّ لفتح هذا الفصل، وقبلت على نفسها أن تلجأ إلى إدارة السجن، لفرض هذه المعادلة، وطرد أبناء حماس والجهاد من السجن، وكل الظن والحسابات بخيالها الخصيب... أن غيابنا عن الساحة... وعنهم، ورحيلنا سيوفر لهم الراحة، وأن المنظمة في صلح مع الاحتلال، ولهذا ستكافئهم الإدارة بامتيازات، حرموا منها لوجود حماس بينهم، وكأنهم طوال هذه السنين، ما عرفوا عدوهم بالفعل، ولمزاجية يتصفون بها، ستبقى معرفتهم بالاحتلال باهتة.

جاءتهم فتح مِنْ غزة، وازدادت الأمور سوءاً، والأوضاع تعقيداً، ونبشوا عما مضى باتهامات ضدّ أبناء الضفة من فتح، أنهم وراء ترحيلهم الأول، ودارت رحى الخلافات... وما انتهت إلا لما تغيرت الظروف، بعودة أبناء حماس والجهاد إلى ساحة "عسقلان" من جديد.

وفي صبيحة يوم من أيام 1999 حملت إلينا إدارة السجن نبأً بترحيل أبناء القدس والداخل الفلسطيني، من حملة الهوية الزرقاء، إلى سجن شطة، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تفكير، فقمنا على أمتعتنا وحزمناها للرحيل. ومشى هذا على أبناء الفصائل جميعاً، تحت دعاوى تحسين ظروفنا مع عملية السلام القائمة. ولكن بدلاً من تحسين ظروفنا، استقبلتنا إدارة السجن في شطة بالعربدة والصلف، ومصادرة أمتعتنا وملابسنا، وحصرها ما بين غيارين إلى ثلاثة. ودخلنا على قسم (17) والإرهاب سيد الموقف،

وجعلوا من السكن خليطاً بين جميع الفصائل، ففي الغرفة الواحدة تجتمع فتح، وحماس، والجهاد، والشعبية، والديمقراطية، كل ذلك لافتعال المشكلات. لكن نضج الشبان المسؤولين فوت الفرصة، وصبروا حتى فرزوا الغرف، وكل فصيل اجتمع في غرف خاصة به، بعد أن توصلنا مع إدارة السجن إلى ترتيب ذلك، وقد مضى على هذه الحال أكثر من شهرين.

كان مدير السجن يهودياً مغربياً، واسمه شلومو رويمي ويعرفه السجناء، وأكثر من يعرفه أسرى سجن جنيد، قبل أن تأتي السلطة كان يومئذ ضابط أمن السجن، وأعماهم بالغاز والإجراءات القاسية، لكنه صاحب كلمة، ويهابه ضباطه وحراس السجن. وذات مرة أخطأ سجان بحق الأخ كريم يونس من فتح، فجاء يوم الجمعة من بيته، واعتذر للأخ كريم عن خطأ السجان. وكان فيما بيني وبينه احترام، حتى قال ذات مرة أمام حاشيته: لو أراد الشيخ أن آتيه بالهواء من الشبك، الذي يعلو الساحة، لأتيته به، وسبحان الله. لكنه قالها نكاية في كريم يونس والرفيق وليد دقة، وليس حباً بي.

وفي سجن شطة، التقينا رفاقاً من دروز هضبة الجولان يتميزون بوطنيةٍ صادقة، وكانوا حرباً على السجانين الدروز، الذين هم من دروز فلسطين. وخطبت الجمعة في تلك الساحة، وميزت بين مواقف هؤلاء ووطنيتهم، ومواقف أولئك من التخاذل، وقصدت أن أُسمعهم، وهم السجانون الذين ينقلون ما يسمعون، ورضوا بأن يُقْتَلَ أبناؤهم، وقد أتى الصهاينة على كل حقوقهم.

سجن شطة له ساحة أكبر من كل ساحات السجون، وكنت أمارس رياضة الركض ساعة يومياً، وبعض التمارين، والنط على الحبل. وكان الأخ سليم الجعبة[7]، والرفيق سامر أبو سير يشاركانني رياضة الصباح على توشيحات فيروز.

وفي هذا السجن على الخُصوص زارنا أعضاء الكنيست العرب جميعاً، من النائب عبد المالك دهامشة، والنائب عزمي بشارة، والنائب أحمد الطيبي، وهم لا يملكون إلا الزيارة، وهي تحت المراقبة، وشكراً لهم على هذه المجاملة.

---

[7] **سليم إسحق الجعبة (1973–)**: أسير مقدسي، انتمى لحركة حماس، وهاجم ومجموعة بقيادة بسام إدريس، وعضوية بدر الحرباوي مقهىً يتجمع فيه المستوطنون سنة 1993، وحرق وأصيب عدد منهم. اعتقل في 1993/10/6 وحكم عليه بالسجن لمدة 17 عاماً، ثم اعتقل مرة ثانية وحكم عليه بالسجن لمدة أربعة أعوام.

وفي هذه الأيام دخلت علينا سنة 2000، ولسوء الأوضاع التي تمر على سجن هدريم، وما يتعرض له قسم العزل من أذى القوم وسفالة مصلحة السجون، والذي هو مخصصٌ لأبناء حماس، ويقطنه ثمانون مجاهداً، منهم اثنان من الجهاد الإسلامي، وواحد من الشعبية، دخل قسم العزل في إضراب عن الطعام، وهيأوا له الظروف، وتواصلوا مع الإعلام، وطلبوا من السجون نصرتهم. ولكن أسرى منظمة التحرير ينتظرون حسن نوايا الاحتلال بالإفراج عن الأسرى، فالنفوس في واد، والتضامن مع الإضراب في واد آخر. وعلى صعيد سجن شطة، تضامنوا ليوم أو يومين، وبقية السجون، وخصوصاً عسقلان، لم يتضامن، ولربما سجن نفحة تضامن لعدة أيام... لأن حماس هي صاحبة القرار هناك.

إضراب سنة 2000:

زحف الإضراب مع الأيام، حتى اكتمل له ثلاثون يوماً. وقد تفاعل الشارع الفلسطيني في الخارج، وانتفض الشعب، وأُطلق عليها انتفاضةُ الأسرى، وسقط شهداء من أجل قضية الأسرى. ولم تفلح مصلحة السجون في احتواء الإضراب؛ لأن المضربين رفعوا سقف المطالب، ففي البداية هم يريدون تحسين أوضاعهم المعيشية داخل السجن، والزيارة لأهاليهم بلا زجاج، وكبقية السجون عن طريق الشبك، ومع كل يوم يرتفع سقف التصميم من المضربين، فطالبوا بالدراسة الجامعية في جامعة القدس المفتوحة، وأن تنتهي حالة العزل، وأن يُسمح بالتلفون. وهذه المطالب فوق مستوى مصلحة السجون، فتدخل الشاباك، وعلى مستوى أعلى هيئة فيه.

كنت في سجن شطة، واستدعاني ضابط القسم في سفرية سريعة إلى سجن هدريم، وفي مثل هذا الجو يكون الاحترام من الضباط سيد الموقف. فانطلقت بنا الحافلة دون أن ترافقني أمتعتي، حتى وصلنا هدريم، والتقينا ضباطاً من مصلحة السجون، على مستوى قيادتها، منهم إسحق غباي، الذي كان مديراً لسجني الخليل وعسقلان، ثمّ جاءته ترقية ليصبح المسؤول الاستخباراتي عن السجون، ومنهم كذلك نائب قائد مصلحة السجون ومدير سجن هدريم إيلي غابزون. ودار الحديث بيني وبينهم عن الإضراب، وإلى أين؟ فقلت لهم: المضربون هم مَنْ يقررون. وكان ظني أن مصلحة السجون هي مِنْ وراء حضوري، لكن تبين لي فيما بعد أن الإخوة في هداريم هم من

طالبوا بي، وبإخواني من السجون الأخرى، كما أخبرني الشيخ صالح العاروري. وهؤلاء الإخوة هم: المجاهد أبو إبراهيم السنوار، وتوفيق أبو نعيم، وروحي مشتهى، وزاهر جبرين، ومحمود عيسى. وفي سجن هدريم مجموعة من قيادات الإضراب والعمل، هم الشيخ صالح العاروري، وأبو حذيفة حنيني، وعلي العامودي[8]، وموسى دودين، وهارون ناصر الدين، وزكريا نجيب، وجهاد يغمور[9].

التقينا جميعاً، وأذنت لنا إدارة السجن أن نجلس معاً، ونناقش الوضع، وأن يكون لنا لقاء مع قادة الشاباك حول مطالبنا. وتداولنا الأمر فيما بيننا، للوقوف على مطالبنا جميعها. وقمنا بتشكيل لجنة للحوار، من خمسة إخوة هم: توفيق أبو نعيم، ومحمود عيسى، وزاهر جبرين، وروحي مشتهى واختاروني رئيساً لها. والذي طلبنا لهذا الاجتماع، ووافقت عليه مصلحة السجون والشاباك، هم إخوتنا المضربون. وفي الساعة التاسعة مساءً، حضر رجال الشاباك بفريق من خمسة أفراد، يرأسهم يوفال ديسكين، وقد كان نائب رئيس الشاباك. وكان في انتظارنا خارج قاعة اللقاء الأخوان قدورة فارس وهشام عبد الرازق، ويومها كان وزيراً للأسرى، حتى يضعوا الرئيس عرفات بآخر المستجدات؛ لأنه كان معنياً أن ينتهي الإضراب. ومن خلال الحوار الطويل، الذي امتد لأكثر من أربع ساعات، وربما خمس ساعات، اتفقنا على فكّ الإضراب، مقابل أن يخرج مَنْ في العزل جميعاً، من صباح غد، ومقابل ألاّ نمارس أي نشاط أمني ضدّ قوات الاحتلال من داخل السجون. فقلت لرئيس الشاباك: نحن موافقون على ذلك، ليس من أجل سواد

---

[8] **علي أحمد العامودي (1975–)**: ولد في خانيونس لأسرة هجرت من قرية الجورة سنة 1948. انتقل للضفة الغربية لدراسة الهندسة في معهد قلنديا. التحق في كتائب القسام وعمل مع الشهيد عبد الرحمن حمدان. شارك والشهيد حمدان، وعبد المنعم أبو حميد في قتل ضابط المخابرات نوعم. شارك في عدد من العمليات الموجهة ضدّ الاحتلال وجنوده. يوم 1994/2/24 اقتحمت قوات الاحتلال بلدة أبو ديس وحاصرت منزلاً تواجد فيه الشهيد حمدان، والعامودي، والشهيد يحيى عياش، والشهيد عبد المنعم أبو حميد. انسحب الشهيد أبو حميد وعياش بعد أن بدأ الشهيد حمدان والمجاهد العامودي بالاشتباك مع القوة المحاصرة. بعد قصف بالصواريخ انتهت المعركة باستشهاد عبد الرحمن حمدان وإصابة العامودي بجروح خطيرة أُسر على إثرها. حكم بالسجن المؤبد أربع مرات وأربعين عاماً، ودرس العلوم السياسية في أثناء وجوده في السجن. خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

[9] **جهاد محمد يغمور (1967–)**: أسير مقدسي ولد في بلدة بيت حنينا. في 1994/10/9 اختطف مجاهدو كتائب القسام صلاح جاد الله، وحسن النتشة، وعبد الكريم بدر الجندي الصهيوني نحشون فكمسان وطالبوا بمبادلته مع الشيخ أحمد ياسين وعدد من الأسرى، وكان يغمور منسق هذه العملية والمشرف عليها. اعتقل يوم 1994/10/13، وعذب بشراسة من أجل الكشف عن تفاصيل العملية. حكم بالسجن المؤبد وثلاثين عاماً. خرج في صفقة وفاء الأحرار يوم 2011/10/18.

عيونكم، ولكن لأننا فشلنا في العمل ضدّ قواتكم وجنودكم من داخل السجون. وبعد الجلسة التقينا الأخوين هشام وقدورة، ووضعناهما في صورة ما جرى...

توقف الإضراب على أن تعالج بقية المشكلات، وفي الصباح خرج جميع مَنْ في العزل، ووافقوا لنا على الدراسة الجامعية، وطالبنا بالكمبيوتر، ولكنهم رفضوا، وأمّا التلفون فوافقوا مبدئياً، كما هي الحال عند السجناء المدنيين. وانتهت مشكلة الزيارة للأهل واستبدلوا بالزجاج الشبك. وأما عودتي إلى سجن شطة فانتهى أمرها ببقائي عند الإخوة في هداريم، ولحقت بي أغراضي وأمتعتي، ورجع بقية الإخوة إلى سجونهم، وجاء بقائي بطلب من الشيخ صالح، والإخوة أبي حذيفة، وموسى وهارون، وعلي العامودي، ووافق مدير السجن على ذلك، ولي به معرفة من أيام سجن الخليل، وهو إيلي غابزون، وبيني وبينه احترام. والحق يقال: إنه في سجنتي الأخيرة التي سبقت الإبعاد، أي في نهاية سنة 2010، اقتحم ضابط أمن سجن إيشل غرفتنا، لمعلومة خاطئة بوجود هاتف محمول، ففتشنا بخلع جميع ملابسنا، وتأزم الموقف، وحضر غابزون، وهو قائد المنطقة الجنوبية، فوبّخ ضابط الأمن أمامنا بكلمات قاسية؛ لأنه تعامل معي بهذا الأسلوب، واعتذر لي عن ذلك.

كادت جميع مطالبنا تتحقق، لولا أن انتفاضة الأقصى قلبت كل الموازين، ففي 2000/9/28 قام أريل شارون بزيارة استفزازية، لباحات المسجد الأقصى، ومن حوله حراسه وشرطة الاحتلال. وقال عنه من شاهده، وأنا شاهدتُه: كان ممتقع اللون، والانكسار على وجهه، وهو يتجول في ساحة المسجد، وقد انتفض الناس ورموه بالحجارة والأحذية، ولأول مرة أرى الارتباك على وجهه، وعيناه تزوغان كالذي يغشى عليه.

انتفاضة الأقصى:

منذ أن قَدِمْتُ إلى سجن هدريم أيام الإضراب سنة 2000 إلى سنة 2002، ما برحته إلاّ للتحقيق مرة أخرى لواحد وعشرين يوماً، وقد سبقها وأنا في سجن شطة أن ذهبت مرة أخرى لعشرين يوماً أيضاً إلى التحقيق في المسكوبية.

رُقّي مدير السجن غابزون، وخلفته مديرة اسمها "بيتي"، وكان التفاعل بين الإخوة على أشدّه. وفي غرفة 31 كنت أعيش مع الشيخ صالح، وهي ملتقى الأحبة ومجمع

الخلان. وذات يوم اجتمع الشيخ صالح بالإخوة علي العامودي، وموسى دودين، وأبو حذيفة حنيني، مع غيابي عنهم. وبينما هم جلوسٌ يتناولون أطراف الحديث، وإذا بالأخ منصور شماسنة يدخل عليهم الباب، فانفرجت أسارير الشيخ صالح لحركات يحبها من منصور. وهيهات أن يتمالك نفسه من الضحك، إذ دخل عليهم منصور، وفي يده سروال الشيخ، وقد عطّره، وبعدها أخذ يلوح به بين موسى وعلي وأبي حذيفة، وهذا يتمايل ذات اليمين، وذاك يتمايل ذات الشمال، ومنصور يقول لهم: ويحكم، سروال سيدكم الشيخ. وهات أن "تفرمل [توقف]" للشيخ صالح، فهذه فرصته، وموسى يقول: إبعد عني، وعلي يقول: يا راجل فُكنا منك، ومنصور يرددها عليهم، سروال سيدكم الشيخ، وقد جعله كالبرنيطة على رأس موسى.

وفي يوم من الأيام، وبيتي مديرة السجن، جاء عضو الكنيست جدعون عيزرا Gideon Ezra لزيارة القسم، ورأيته وهو يتفقد القسم بصحبتها، ودخلا غرفة الأخ مروان البرغوثي، وطال الحديث بينهم، ثمّ جاءا إلى غرفتي، والمديرة معنية أن ألتقيه، لكنني كنت قد خرجت إلى غرفة أخرى ولم تجدني. ثمّ ذهبت إلى مجمّع الحمامات ونادت بصوتها: شيخ... شيخ وأنا أسمعها، ولا أجيب. ثمّ رجعت إلى الغرفة، ونادت: شيخ... شيخ، وهو معها وما مِنْ مُجيب. ثم انصرفوا، ورجعت إلى غرفتي، وفي يوم آخر، حضرت بيتي وقالت لي: أنت متطرف، قلت لها: لا، ولماذا؟ فأخبرتني بما حصل البارحة، ثمّ جاء ترحيلي بعد ذلك، ربما لهذا السبب.

وذات مرة، تلاومت والأخ المجاهد علي العامودي، وهو من خيرة رجالنا، ومن أذكى شبابنا، وهو من قاد إضراب سنة 2000 مع الشيخ صالح وعبد الحكيم، فشعر أني قسوت عليه، فقال لي: يا راجل بيني وبينك "حلف دم". نعم، هو والشهيدان عبد الرحمن حمدان[10]، وعبد المنعم أبو حميد، من وراء تصفية رجل الشاباك في رام الله، وأنه على علم بالذي بيني وبين الشهيد عبد المنعم.

[10] **عبد الرحمن محمد حمدان (1971–):** ولد في مخيم خانيونس لأسرة هجرت من قرية السوافير الشرقية سنة 1948. طورد للاحتلال لمشاركته في فعاليات الانتفاضة الأولى. التحق بكتائب القسام وانتقل إلى الضفة الغربية. شارك في قيادة عدد من مجموعات الكتائب التي نفذت عدداً من العمليات أبرزها في ضابط المخابرات الصهيوني نوعم. استشهد في معركة انتهت بقصفه بالصواريخ يوم 1994/2/24، حين حاصرته قوات الاحتلال في بلدة أبو ديس وإخوانه المجاهد علي العامودي، والشهيد يحيى عياش، والشهيد عبد المنعم أبو حميد. وبعد انسحاب الشهيد أبو حميد وعياش، بدأ حمدان والمجاهد العامودي بالاشتباك مع القوة المحاصرة، إلى أن استشهد وأسر المجاهد العامودي مصاباً.

أما على صعيد الانتفاضة، فلقد اتخذت طابعاً متميزاً عن الانتفاضة الأُولى. فجميع الفصائل تسابقت في هذا الميدان، وتشكلت الأجنحة العسكرية، بعد أن غابت طويلاً، حيث انفرد العدو والسلطة الفلسطينية بكتائب القسام وسرايا الجهاد الإسلامي بعد أوسلو، وهذا نجاح عظيم لحركة حماس، أن تأتي بهذه الأجنحة، إلى ميدان المقاومة. ونجحت المقاومة، من خلال هذه الانتفاضة، بطرد العدو الصهيوني من قطاع غزة، واجتاحت قوّات الاحتلال مدن الضفة الغربية، وما أبقت من أوسلو على شيء، إلاّ التنسيق الأمني القائم على خدمة الاحتلال.

لقد أخذ الاحتلال يسابق الزمن، في بناء جدار الفصل العنصري، حتى يحجّم عمليات المقاومة، وما أفلح ولن يفلح. ولولا خدمة أجهزة أمن السلطة الفلسطينية للاحتلال، ما استطاع الصهاينة أن يتغلبوا على المجاهدين، وعلى حسن أدائهم وفاعلية تكتيكاتهم، وهم الذين على الدوام يُبدعون.

لقد دفع الشعب الفلسطيني دمه ثمناً لنجاح انتفاضة الأقصى، ولم يتبقَّ في سجون الاحتلال حتى سنة 2000 إلا 750 مناضلاً ومجاهداً. ولما فشل مشروع أوسلو، وعجز كامب ديفيد، عن التوصل إلى حلّ الدولتين على الأرض، اندفع الشعب الفلسطيني في العطاء بلا حدود، ووصل عدد الأسرى إلى ما يقارب 2000 أسير. والشعب لا يريد إلا قيادة وطنية صادقة، والشعب إذا تولى قيادته وطنيون أحرار فهو لا يعرف التعب. وإنه كما قال لي أخي أبو إبراهيم السنوار، ونحن في العزل في الإضراب سنة 2004، "إذا لم تخذل القيادةُ القاعدة، فعطاء القاعدة بلا حدود".

ومع استفزاز شارون مشاعر هذا الشعب، واقتحامه المسجد الأقصى، كان الرد وبالاً على الاحتلال، فذاق الويل، من خلال عمليات جريئة، هزت كيانه. وشُرِّعت أبواب السجون والمعتقلات، أمام زحوف المجاهدين. إنها المراغمة، التي أخذت شرعيتها من المسجد الأقصى المبارك، ونالت بركته، حتى انتشرت أصداؤها عبر الأرض، التي بارك الله فيها للعالمين، وإنه العطاء المتجدد، والحياة من خلال الشهادة.

مشكلة الخليل وغزة:

لم تعرف حماس منطق "الشللية" أو الفئوية، فحماس ببنائها العقائديّ أكبر وأعلى شأناً من أن تقع في البلديات و"الشلليات". وهذا أمر ظاهر لأعين الناس، ولزمن طويل، وحتى أيام الجماعة الأولى قبل سنة 1985، وأنا إمام لجميع الأسرى، على مختلف

مدنهم وقراهم، وعلى الخصوص أبناء حماس. وكان الحاج إسماعيل أبو شنب، رحمه الله، أميراً علينا... ونعم الأمير، ولا أظن أحداً شكك في قدرته وإمارته. والأخ أبو حذيفة عبد الحكيم حنيني، ونحن مشايخه، كان أميراً علينا، وهو من الأدب بمكان.

لما اجتمعت حماس في سجن نفحة سنة 1999، وبقي سجن عسقلان مقتصراً على عناصر فتح وفصائل المنظمة، دخل على خطّ حماس شخصٌ اسمه "ف. ع." من دورا الخليل، جاءنا مِنْ عند الإخوة في الجهاد الإسلامي، وعاش في نفحة، وأكثرُ القاطنين فيه من غزة والخليل. وفواز محسوب على أهل دورا الخليل، فأثار فتنة في التنظيم، واستقطب حوله إخوة كراماً، ومفاد دعواه أن أهل غزة يستأثرون بالتنظيم، وأنهم قوم مستبدون، ولا بدّ من وضع حدّ للقائمين على هذا الأمر، وتحجيم دورهم، وأن أهل الضفة، والخليل على الخصوص، لا موطئ قدم لهم في التنظيم، ومظلومون.

نعم، أنا أقر، أن بعض الإخوة القائمين على العمل التنظيمي فيهم قسوة، لكنهم والله، ثمّ والله، رجال مخلصون، ويؤثرون على أنفسهم، وهم عُباد لله، أمثال الإخوة توفيق أبو نعيم، وروحي مشتهى أبو جمال، وحسن المقادمة أبو علي، وهو شقيق الشهيد الدكتور إبراهيم المقادمة. هؤلاء رجال هيهات أن تأتيني بمثلهم، وكلّهم أفضل من هذا الشخص، الذي قسَّم العرب عربين، وجعل منها خليلياً وغزاوياً... ونجح في شرخ التنظيم، وقد شدّ على يديه إخوة كرام عن حسن نية، فحصلت المشكلات ووقعت الفتنة. وأصبح لحماس غزة قسمهم الذي يُعرف بمكة، ولأهل الخليل وريفها قسمهم. وبقي التنظيم شكلياً إلى أن قدّر الله فرحلت من سجن هدريم إلى سجن نفحة، وكان ذلك سنة 2002.

نفحة بعد ثمانية عشر عاماً:

بعد أن تجنبت لقاء الوزير جدعون عيزرا، وجاء اسمي للرحيل عن هدريم إلى نفحة، بسبب هذا الموقف، وأسباب أخرى ادعتها مديرة السجن، زاعمة أن لي اتصالاً مع خارج البلاد، من خلال الهاتف المحمول. ومعنى ذلك التواصل مع قيادة حماس في دمشق ولبنان، وربما حصل ذلك لمرة أو مرتين، وليس من وراء ذلك شيء. إنما هو الهوس عند الاستعلامات والشاباك ليس غير. حملتني "بوسطة" النقل ابتداءً من هدريم، وهي مكتظة بالأسرى، وفيها من هو متمرد على مشاعر الناس، فيشعل سيجارته غير آبهٍ لمن معه، ومنهم... ومنهم. ثمّ سارت بنا شوارع فلسطين، وعلى جوانبها وعلى مقربة منها

بساتين البرتقال، حتى وصلنا إلى سجن الرملة، وهو محطة مرور واستراحة عند شرطة مصلحة السجون... وبعدها انطلقت بنا ناقلة أخرى إلى سجن عسقلان فبئر السبع، ونمنا ليلتنا هناك. وفي الصباح غادرنا السجن إلى نفحة.

استقبلتنا إدارة نفحة بالمعلوم، وهو التفتيش الذي لا يبقي على كرامة الإنسان، ولا يتسع له القاموس لنذالة أفعالهم وممارساتهم. وكانوا يأتون ببعض الأسرى، ويرغمونهم على خلع ملابسهم، كما ولدتهم أمهاتهم. بل يبلغ أذاهم وفساد فطرتهم، أنهم يرغمون الإنسان عرياناً على جلوس القرفصاء، "وافتح رجليك، وانزل، واستدر يميناً، وشمالاً، وإلى الأمام، وإلى الخلف..."؛ كل ذلك بدعوى أن الأسير قد يخبئ في أحشائه هاتفاً محمولاً. هذه الأمور حصلت من هؤلاء السفلة. وكثيراً ما أقول: إنهم لا يحترمون الله، فكيف يحترمون البشر؟ لا، لا يمكن. إنهم يتلذذون على معاناة الأسرى. ألم تروا من على شاشات التلفزة إلى ما فعلته كلابهم بحق امرأة من أخواتنا، في بلدة العبيدية وهم يتفرجون؟

بعد أن انتهينا من التفتيش، استوعبتنا غرفة 63 من قسم (11)، فيها نوارة دورا ووجيه آل الرجوب، بعد الشيخ نايف، ألا وهو الحاج رزق الرجوب. وكنت أقول لأخي الحبيب الشيخ النائب نايف الرجوب، ومن باب المودة، إن رجل آل الرجوب هو الحاج رزق، لكن لا وجيه والشيخ نايف موجود. فأبو حذيفة شيخنا وشيخ الكل، فرج الله كربه.

استقبلنا الحاج رزق، وهو حبيب الشيخ صالح، ومعه الإخوة أحمد طبيش، وجهاد عمرو، وحسين القواسمي، وحظينا برؤيتهم. والتقيت في اليوم الثاني، من خلال "الفورة"، الأحباب جميعاً من ساكني القسم، ومعظمهم مِنْ أهل الخليل وريفها، وأنا أحب الخليل، ولولا حبي للقدس ما اخترت عن الخليل بديلاً. وكثيراً ما ألحّ علي الحبيب أبو همام النتشة، أن يشتري لي قطعة أرض في الخليل، لكن الظروف لم تساعد.

استقرت بي الأمور في القسم، وجاءني الأخ توفيق أبو نعيم، يعرض علي الدخول في الانتخابات لإدارة أسرى حماس، فاعتذرت. ويشهد الله أني لا أرغب، ولا أحب العمل في التنظيم، من موقع المسؤولية، لكنه أصر على ذلك، وشرح لي الظروف التي خلفها الشرخ، بفتنة "ف. ع."، وقال لي: أنت مقبول عند الناس، وعند أهل غزة قبل الخليل، ولا يزال في النفوس بقايا من بعد ذلك الشرخ.

فاستخرت الله، وشاورت من أثق بهم، وجميعهم دفعوا نحو ذلك، وجرت الانتخابات على صعيد قاعدة مكونة من 300، أو يزيد، من أبناء حماس، أفرزت هذه الانتخابات مجلس شورى عدده 18 عضواً، وانتخب المجلس مكتبه التنفيذي من خمسة أعضاء، منهم الحاج سعيد زعرب من غزة، والأخ توفيق أبو نعيم كذلك من غزة، والمجاهد عبد الرحمن غنيمات، ونسيت الرابع... وكنت خامسهم وأميرهم. والدورة الانتخابية ستة أشهر.

استطعنا في هذه الدورة أن ننجز كثيراً، ولو لم يكن غير إعادة الثقة بين الجناحين، الضفة وغزة، والخلاص من دوامة الماضي من إنجاز لكفى. ولكن ومن باب الاستدراك، لما وصلتُ إلى نفحة، أتيت إليه والوضع هادئ، وقد سبقه وضع متفجر، حيث أقدم أحد أبنائنا الأبطال الأخ المجاهد هاني جابر من الخليل (هو وابن مجموعته المجاهد عوض السلايمة، قاما بطعن مستوطن عند المسجد الإبراهيمي، فأردياه قتيلاً) على طعن مدير السجن عدة طعنات، بآلة حادة ذهبت به إلى المستشفى لأكثر من شهر، وكذلك سجان آخر، تعرض لمثل ذلك. ومن ثمّ قامت قيامة السجن، وهو في بدايات الهدوء، وسبب ذلك أن إدارة السجن أقدمت على تفتيش زوجة أحد الإخوة في الزيارة، وهي من غزة، فقرر فتانا هذا الانتقام، وأهدرت بأقسامها دم ضابط أمن السجن، وكانت الضربة في الأساس له، لكنه غاب فحضر المدير فكانت الطعنةُ من حظه.

المجاهد هاني رأى في المنام الإخوة الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، والحاج إسماعيل أبو شنب، والشيخ صلاح شحادة، وأنا معهم في غرفة واحدة، وقال، من خلال الرؤيا، أنهم يستشهدون وأنا أتأخر عنهم، كما أوّلها الأخ توفيق أبو نعيم. واستشهد إخواني أولئك، وأسأل الله أن يختم عمري بالشهادة... اللهم آمين.

لقد استطاعت هذه الدورة الانتخابية أن تنجز تحسناً على الوضع العام، وكان المكتب بأعضائه يجتمع كل أسبوع مرة، ليناقش أحوال التنظيم وسياسته الإدارية، والثقافية، والأمنية، والمالية، ويضع السياسات لمندوب الخارجية مع بقية الفصائل، وأما مجلس الشورى، فكانت له اجتماعاته الشهرية، يتابع ويراقب، وهكذا لا يوجد مجتمع يخلو من المشكلات... ولكل مشكلة طبيب.

وجرت انتخابات الدورة الثانية، ولستة شهور أخرى، ورجع المكتب على هيئته الأولى ودخل أخ جديد بدلاً من أحد الإخوة السابقين. وخلال هذه الدورة، جاء مدير جديد للسجن، وأقبلت الإدارة على سحب إنجازات، ضحينا من أجل تحقيقها بالكثير.

سياسة جديدة اعتمدتها مصلحة السجون، وخاصة بعد هرب الأخوين، محمد الرشق ونزار محمد رمضان من سجن عسقلان، إلى جانب الظلال التي ألقت بها انتفاضة الأقصى، من خلال الحرب الضروس، والعمليات الاستشهادية التي تستفز مصلحة السجون، وجهاز الشاباك، والذي دخل على خط مصلحة السجون، فضيق على الأسرى معيشتهم. بل جدد سياسة العزل من جديد، بل أكثر من هذا، قلصوا ساعات النزهة اليومية، وكذلك ساعات الرياضة، وضيقوا في فتح الأبواب، وألغوا زيارات الأقسام، والخروج إلى النزهة والعودة إلى الغرف، وجعلوا ذلك تحت مراقبة السجان وتفتيشه بـ"الماغنوميتر" (آلة للكشف عن المجال المغناطيسي). وزاد الطين بلة، أنهم استبدلوا بشبك الزيارة الزجاج والتلفون. ويعني هذا أن كل حديث مع الأهل سيكون تحت المراقبة والتسجيل. ورداً على هذه الإجراءات، امتنع الأسرى عن الخروج للنزهة أو "الفورة"، ولثلاثة أشهر وهم لا يخرجون إلا لصلاة الجمعة. وخطبت الجمعة يوماً، ورداً على إجراءاتهم، قلت: إن تقتلوا منا واحداً، نقتل منكم عشرة، وحديث طويل أثار حفيظة ضباط السجن والإدارة جميعاً، ورجعنا إلى الغرف بعد ذلك. وفي المساء كبرنا لصباح العيد، وكذلك احتجاجاً على إجراءاتهم. وهذا ما دفع الإدارة أن تتخذ قراراً بنقلي من السجن إلى العزل، لولا السياسة الحكيمة، من الأخ الحبيب توفيق أبو نعيم (أبو عبد الله)، الذي قال لي: لا تخرج إلا بالفرشة إلى الزنازين، واترك جميع أغراضك في الغرفة... وبينما كان ضابط أمن السجن، وآخرون من الإدارة واقفين في مربع الأقسام، استقبلني أبو عبد الله، على مرأى منهم، فقبل يديَ عنوةً أمامهم، وإني والله لا أسمح لولدي أن يقبل يدي، لكنه أراد أمراً من وراء ذلك. وقال لهم: هذا عندنا في السجون، وفي القدس والضفة، كالشيخ أحمد ياسين في غزة، ثمّ إنه أقنعهم بالاكتفاء بعقوبة الزنزانة، بدلاً من الترحيل والعزل. وقضيت أيام العيد في الزنازين.

رجعت إلى القسم بعد الزنازين، وانتهت دورتنا الانتخابية في ظلّ هذه الأوضاع التي تتصاعد تحدياتها، وبقي الأخ أبو عبد الله ممثلاً للمعتقل. وجرت انتخابات جديدة، وتشكل مكتب تنفيذي جديد بأمير جديد هو الأخ المجاهد الدكتور عزام سلهب، ومعه في المكتب الأخ أيمن طه (أبو محمد)، لأن القانون الإداري لا يجيز الترشح لأكثر من دورتين.

جاء مدير جديد للسجن كما ذكرت، وهو على معرفة بـ(أبي عبد الله) توفيق، مِنْ أيام العزل الأولى سنة 1990، حيث جرى بينهما صدام ملخصه أن المدير الجديد كان ضابط

أمن العزل في سجن نيتسان في الرملة، وجرى اشتباك بينهما، فضرب توفيق ضابط الأمن في رأسه، "وعلَّم عليه"، وكذلك تعرض توفيق لضربة في رأسه من هذا الضابط، الذي أصبح مديراً فيما بعد لسجن نفحة، وبعد اللقاء، وتبادل الحديث تغيّرت الحال، وكأن تجربة الماضي القاسية، مهدت لعلاقة حسنة، وشيئاً فشيئاً خيم الاستقرار المشوب بالحذر.

التفتيش الليلي:

في إحدى الزيارات الدورية، حيث كان المدير يقوم بزيارات للأقسام كل يوم خميس، ويختمها عندنا في الغرفة، لكنه في هذه المرة يدخل علينا الغرفة مع طاقمه، ويدير حديثاً عن السياسة والأوضاع بشكل عام. وبحضور الأخ توفيق بصفته ممثل المعتقل، وواصل حديثه قائلاً: من الممكن أن تقوم الإدارة بتفتيش ليلي، وكل ذلك للبحث عن الهواتف المحمولة؛ لأنها كانت موجودة بكثرة. قلت له: هذا أمر غير مقبول لدينا، إن أردت التفتيش، فلك ذلك خلال النهار، والأسرى يتفهمون ذلك، أما في الليل، فهذه سابقة مرفوضة ولن يقبلها الأسرى. قال المدير: الهواتف المحمولة تشكل خطراً على أمننا، ومن بينكم من يتحدث عن تنظيم في الخارج، ودعوة إلى عمليات داخل ما يسميه هو "إسرائيل". وبالطبع هذه معلومات تنقلها المخابرات، وتتابعها، وعزلت مَنْ كان له اتصال مع المجموعات العاملة في الساحة، وانفض اللقاء دون حلّ، لكن وصلت الرسالة.

ذات ليلة قبل صلاة الصبح، اقتحمت قوة تفتيش انتخبتها مصلحة السجون لهذه الأمور، اسمها "ماتسادة"، هذه الفرقة اقتحمت غرفة للإخوة في فتح، في قسم خاص بهم، وفتشوها وأخرجوا منها الهواتف المحمولة. وفي الوقت نفسه، وبعد صلاة الصبح، جاءت القوة لتفتيش غرفة لحماس في قسم آخر، والناطق باسم القسم هو الأخ المجاهد فايق المبحوح، شقيق الشهيد محمود المبحوح، وفي الغرفة الأخ المجاهد مصطفى رمضان، ومحمد أبو عايش، والأخ أشرف أبو مرخية، وآخرون. فتحدث الضابط إلى الأخ فايق قائلاً: إنهم يريدون تفتيش الغرفة، فرد عليه الأخ فايق، دعني أتحدث إلى أبناء القسم، حتى لا تقوم فوضى. لكنه فوجئ بفتح الباب، والدخول في عراك مع الشباب في الغرفة، وعند خروج القوة، نسيت أحد ضباطها بين الشباب، فأوجعوه ضرباً، وعلّموا على عينيه بلكمات، يقول عنها هذا الضابط، إنها أقسى خمس دقائق في حياته.

قامت الأقسام بمن فيها، وبدأ الضرب على الأبواب، وأعلنت حالة الطوارئ، واستدعت إدارة السجن نجدة من السجون الأخرى لمساعدتها، وجاءت قوات خاصة. والجيش محيط بالسجن، وأخرجوا الأسرى من الغرف، وأوجعوا من رفع صوته عليهم، وكان الأخ المجاهد عماد الصفطاوي[11]، ممن انهالوا عليه ضرباً، وداسوا عليه بالنعال، حتى خرج البراز من دبره، كما قال لي، وقد قيدوه بالسلاسل، واقتادوه إلى الزنازين.

وفي القسم الذي نحن فيه، قامت دنيا الأسرى ولم تقعد، حتى إن ضابط الاستخبارات قال لي فيما بعد: كنت أريد أن أدخل القسم لأتحدث إليك، ولكنني خفت أن يرشني الأسرى بالماء الساخن، أو أي شيء آخر... نعم لقد خشي على نفسه.

تأزم الموقف، ومن أول النهار إلى آخره، والتفتيش التعسفي في غرف ذلك القسم وحده، وعاثوا في أغراضنا وأمتعتنا فساداً، وصادروا طعامنا، ووضعوا القهوة على الزيت، والزيت على الملابس، والسكر على الملح، وما أبقوا على شيء... لعنهم الله.

وبقي الوضع متوتراً لأسبوع، والأسرى على جاهزية، وعلى أعصابهم، وإدارة السجن على خشية وتخوف، إلى أن جاء مدير السجن وطلب لجنة الحوار، وهي من جميع الفصائل. وأصر توفيق أبو نعيم ممثل المعتقل على حضوري، على الرغم من أني لا أعمل في التنظيم، والأخ فؤاد الرازم عن الجهاد الإسلامي، والأخ خالد الأزرق عن فتح، والأخ ماهر أبو كرش عن الجبهة الشعبية، والأخ سمير قنطار شخصية اعتبارية، وجوده يلطف الأجواء. جاء المدير واجتمع بنا في غرفة الكانتينا، جاءنا وهو مقطب الجبين، مكفهر الوجه... ولا يضحك للرغيف الساخن، وجلسنا جميعاً على الكراسي، وهو على كرسي قبالتنا، وقال بالعبرية كيف أقول لكم "شالوم" ونحن في حرب؟ وأخذ الأَخَوان توفيق أبو نعيم وسمير قنطار يلطفان الجو بكلمة من هنا، وكلمة من هناك. ولكن المدير خرج علينا بنبرة حادة، وكأننا تلاميذ عنده؛ فقال: أنتم نسيتم أنكم أسرى؟ ونسيتم أنكم في السجن؟ ونسيتم؟ ونسيتم... كل ذلك على صيغة

[11] **عماد الدين أسعد الصفطاوي (...–):** ولد في غزة لعائلة هجرت من بلدة المجدل سنة 1948. متزوج وله ثلاثة أبناء. هرب من سجون الشجاعية في عملية هروب كبيرة بقيادة الشهيد مصباح الصوري في أيار/ مايو 1987. عمل بوزارة الأوقاف بعد عودته لغزة للمشاركة في جلسة المجلس الوطني سنة 1996. اعتقل في 2000/12/13 من على معبر رفح، وحكم عليه بالسجن لمدة 18 عاماً لمشاركته في التخطيط لعمليات استهدفت الاحتلال قبل أوسلو.

السؤال، وما مِنْ أحد يتصدى له، وبدون استئذان، ولا مقدمات قاطعته، وقلت له: اسمع يا سيمون —هذا اسمه— نحن ما نسينا أننا أسرى، وعند الصهاينة كذلك، لكن نحن أسرى حرية، وجئنا للسجن من أجل وطننا الذي سلبتموه. نحن أسرى قضية وطنية، لسنا جنائيين ولا مدنيين، نحن عسكريون. بل اسمع جيداً، هذه الانجازات التي تدَّعي أنها مِنَّة منك وتفضل، دعواك غير صحيحة، هذه الانجازات التي سحبتها، دفعنا ضريبتها أطناناً من اللحوم، في إضراباتنا عن الطعام، وسقط منا شهداء، وتأذى أناس كثيرون. وما مِنْ مرة إلا وأسلوبك في الحوار معنا إلا والغاز والعصي والهراوات حاضرة، اسمع يا سيمون: "الله لا يخلف عليك"... وفي هذا السجن الذي أنت مديره اليوم، سقط منا في إضراب سنة 1981 ثلاثة شهداء، وهم: إسحق مراغة، وعلي الجعفري، وراسم حلاوة. هؤلاء أنتم مَنْ وضع بربيج الحليب في رئة كل واحد منهم، حتى نزلت السوائل إلى الرئة فقتلتهم. وتقول نسيتم، لا والله ما نسينا. فسكت وبدأ يتراجع، وتوصلنا وإياه إلى التهدئة، واتفاق آخر يخص الزيارة وبعض الأمور. لكنه فيما بعد نكث ولم يفِ بوعده... فكان لي معه موقف.

في يوم الخميس، كما هو معهود، جاء المدير زائراً مع عدد المساء، قام ضابط العدد بما عليه فعله، فأغلق الباب بالمفتاح والقفل، ثمّ جاء المدير على باب غرفتنا، وقال بالعبرية: "عيرف توف" وتعني مساء الخير، فقلت له: مساء الخير، وأنا جالس على سريري، الذي هو عن يمين الباب، فما وقفت له؛ ويعني ذلك إهانة وردة فعل مني على موقفه، الذي تراجع عنه، وأحرجنا في لجنة الحوار أمام إخوتنا من الأسرى، لأنهم يفسرون ذلك، أننا خنعنا لشروط الإدارة. ولما رأى مني ذلك، قال للسجان: افتح الباب، فقال له السجان: انتهى العدد، فقال له آمراً وبحدة، افتح الباب، ففتح له الباب، ودخل علينا الغرفة، فلما دخل علينا، قمت له وسلم علينا جميعاً وخرج. والأدب عندنا أنه إذا دخل علينا أحد الغرفة، نقف ونسلم عليه. وبعد ساعة على التقريب رجع إلينا ووقف على الباب وقال: مساء الخير، فقمت له، ورددت عليه بتحية المساء، وقال: عن نفسه، أنا أعرف —مُوجهاً الحديث إليَّ— أنك زعلان، و"تعال نتكلم على بلاطة"، فقلت له: "اسمع يا سيمون، نعم أنا زعلان وغضبان، لأنك أحرجتنا أمام الأسرى، يوم أن وعدتنا بشأن الزيارة ثم تراجعت... اسمع يا سيمون، اعلم أنني أكبر منك، وأكبر من مدير مصلحة السجون، وأكبر من رئيس وزراء دولتك". قلت له هذا والله يشهد، وإخواني من الفرح لهذه اللهجة يشهدون، وكأنك تطعمهم عسلاً. وقلت له قصتي مع قائد الشاباك في القدس، يوم أن

قلت له: والله لو وضعتني في هذه القارورة، وأغلقت عليَّ فأنا حرٌ أكثر منك. وقلت له: أنت مدير على سجن فيه 1,000 معتقل، بينما صاحبك رجل الشاباك في القدس مسؤول عن أمن ستمئة ألف يهودي، غير العرب، إن كان مسؤولاً عن أمنهم، أو مطاردتهم. ثمّ انتهى الحديث بالتفاهم، وغادر السجن ليلتها إلى بيته.

وقصّة الزيارة هي أن الأسرى رفضوها بنسبة 62%، هؤلاء لا يريدون زيارة أهاليهم عن طريق الزجاج والتلفون. ولكن هذه الحالة طبقت على كل السجون، فلا مناص من ذلك، خاصة وأن موقف بقية السجون ضعيف، ولا بدّ من بلورة موقف جماعي لمواجهة هذه الهجمة. وأعترف أننا في الحوار تجاوزنا وارتكبنا خطأً إدارياً، كان الأجدر بنا أن نرجع إلى الإخوة في القواعد التنظيمية، لكننا اجتهدنا فأخطأنا.

والغريب فيما بعد، أن الأسرى ارتاحوا للزيارة عن طريق الزجاج والهاتف المحمول، لأنهم عاينوا ذلك. وسارت الأمور على خير ما يرام.

مع الشيخ رائد في حيفا:

وذات يوم من أيام الصيف في 2004، جاءتني سفرية في "بوسطة" السجن إلى حيفا. وأخبار السفريات عند الأسرى مزعجة، لِما شرحناه. لكن هذه المرة لم تكن رحلتي واضحة المعالم. فإلى حيفا لا يكون إلا للجلمة، والجَلَمة مركز تحقيق، وشغلت هذه السفرية بالي، منذ أن جاءني نبأُها إلى أن استقرت بي "البوسطة" في سجن الجلمة، ولم تعرج بي على مركز التحقيق. فسألت الضابط المناوب عن السبب في هذه السفرية، فقال: أنت الآن ذاهب إلى مركزية حيفا، و"البوسطة" تنتظرك. وفعلاً من بوسطة إلى أخرى، وسارت بنا الطريق إلى المحكمة المركزية في حيفا. ولما وصلت إلى غرفة الانتظار، وإذا برجل من النيابة ومحاميها يطرقان عليّ الباب، وتحدثا إليَّ أن السبب في حضوري هو محكمة الشيخ رائد صلاح، فقلت لهما: وما شأني بهذا؟ قالا: نحن على استعداد أن ننزل من حكمك، وأن تخرج بثلثي الفترة التي قضيتها، إن شهدت على الشيخ رائد بأنه يبيض الأموال. قلت لهم: بهذه البساطة، قالا: لهذا الأمر أنت هنا، قلت لهما: اسمعاني جيداً، أنا مستعد أن أقضي عمري سجناً، ولا أن أشهد على الشيخ رائد وصحبه. فغادراني إلى أن جاء موعد المحكمة. فعرجت بي الشرطة إلى قاعة المحكمة، وكان فيها الشيخ رائد، والدكتور سليمان اغبارية، والإخوة محمود أبو سمرة، وتوفيق عبد اللطيف،

وناصر خالد، وسلمت على الجميع يداً بيد، وسلمت على الحاضرين بالإشارة، واستغلت النيابةُ هذا السلام، وسألتني المحكمة بعد اليمين: أتعرف هؤلاء؟ قلت نعم أعرفهم، وشرف لي أن أعرف الرضيع من أم الفحم، ومَنْ هو في بطن أمه. ومن لا يعرف الشيخ رائد؟ وتوجهت إليَّ بالسؤال: عن العلاقة بيننا، فقلت: قضيتي أنا عسكرية وأمنية، وهذه قضية مدنية، وقد راودتني النيابة قبل دخولي إلى المحكمة، ووعدتني بتخفيض الحكم إن تعاونت معها، وأنا مستعد أن أقضي عمري سجيناً، ولا أشهد على الشيخ رائد. ولقد سبق للمخابرات في التحقيق أن سألتني عن هذه القضية، ولو كنت أعلم بذلك، أو ورد ذلك في التحقيق... لما صبرت النيابة لهذا الوقت. وانتهت المهمة التي حضرت من أجلها، وبودل هذا الموقف مِنَ الشيخ رائد ورفاقه، والحاضرين من أنصار الشيخ رائد، بالتحية والاحترام والإكبار. وجزاهم الله خيراً.

إرهاصات الإضراب الأخير:

لقد أتت انتفاضة الأقصى على الشعب الفلسطيني بإفرازات جديدة، ودخل السجون شباب لا تجربة لهم، بل منهم مَنْ هو أقرب إلى السجناء الجنائيين منهم إلى الأسرى. وهؤلاء يحتاجون إلى جهد كبير، وإلى فترة غير بسيطة، حتى يتأقلموا مع قوانين السجن، ومع أعراف السجن. ومنهم من أساء بسلوكياته، إلى سمعة الأسرى الوطنيين، حتى إن كثيراً من ضباط مصلحة السجون، وكذلك السجانين دون الضباط قالوا: إن بعض هؤلاء الأسرى، هم مدنيون وجنائيون، لأن معرفتنا وتجربتنا مع الأسرى الأمنيين غير عن هؤلاء، وأساءوا لكم. وهذا مما أحرجنا وضيق علينا، وجعل مواقفنا ضعيفة أمام مصلحة السجون، ولأن عناء التجربة الاعتقالية وتضحياتها، هي التي فرضت على عدوك أن يحترمك، ومن ثمّ يأتي من يخرب عليك بجهله كما يقال: "لا يبلغ العاقل من خصمه ما يبلغ الجاهل من نفسه".

وإن زيادة الأعداد الوافدة إلى السجون من هذه الشرائح المختلفة، يرافقها سياسة جديدة من مصلحة السجون، فيها عدوانية وتصعيد، برئاسة قائد جديد لمصلحة السجون، ومن اختيار شارون، جاء ليفرض على السجون حالة مركزية غير معهودة. فمن قبل كان لكل سجن سياسته، أما في عهد هذه الطاغية فجميع السجون خاضعة لمزاجيته. وكذلك الاعتداءات البشعة ضدّ الأسرى في سجن جلبوع، والذي كان للسجانين الدروز أسلوبهم القذر في التعامل مع أسرانا. وكانت تأتينا الرسائل من إخواننا الأسرى،

بمختلف فصائلهم عن حالة الامتهان والإذلال، التي يتعرضون لها. مما أثار حفيظة الأسرى في كل السجون، فتأهبوا لنصرة إخوانهم في سجن جلبوع، الذي يقع في شمال فلسطين، على الطريق ما بين بيسان والعفولة.

كل هذه الأسباب، مع انقطاع زيارات الأهل، لبعض المناطق في الضفة الغربية، تحت حجج واهية، يختلقها رجال الشاباك، مدعين أنها تشكل خطراً على أمنهم... كل ذلك دفع إلى التفكير والتحضير لإضراب مفتوح عن الطعام، تقوم عليه السجون جميعها.

تبادلت السجون الرسائل فيما بينها، حول حالة التردي التي وصلت إليها، وعلى الخصوص ما يتعرض له الأسرى في سجن جلبوع، على يد الجلاوزة من سجاني مصلحة السجون، وخاصة الدروز منهم، الذين يعتبرون سجون الشمال، دولة لهم وحضورهم فيها هو الغالب.

جاء مدير مصلحة السجون الجديد، واسمه يعقوب جَنوت، وهو أعور، وعينه أصيبت في أثناء الحرب، جاء مرة لزيارة سجن نفحة، وقد أحاط نفسه بهالة كاذبة وانتفاشة باهتة، في محاولة لاستعراض قوته، دون أن يلتقي ممثلي السجن. وفي زيارة أخرى، وقد وصلته الأخبار أن استقبال الأسرى له هو الإعداد لإضراب مفتوح عن الطعام. دخل علينا القسم، ثمّ فُتح باب غرفتنا أمامه، ودخل مع مدير السجن وحاشيته، وسلّم وجلس للحديث، وقال: سمعت أنكم تريدون الإضراب، وهذا ليس لصالحكم، ولغتنا معكم تختلف عن المرات السابقة، فاستأذنت من إخواني للرد عليه، وقلت له مثلاً عربياً: "ما الذي أدى بك إلى المر... إلاّ الذي أمرُّ منه"، وواصلت الحديث متهماً إياه: أنت من جعلت من سجن جلبوع، كمعتقل غوانتانامو Guantanamo، وسجن "أبو غريب" في العراق، فقال لي: ماذا تقول؟ قلت له: نعم، هذا الذي يتناقله الأسرى عن بشاعة المعالجة من سجانيك ضدّ إخواننا الأسرى. فاستفز، وقال: الآن، تذهب معي إلى سجن جلبوع، وتسمع منهم، وتشاهد أحوالهم بأم عينك. بالطبع هو غير جاد فيما يقول، ثمّ استنفد غرضه من الحديث، وخرج ومَنْ معه بحسابات جديدة لمعركة قادمة وعلى الأبواب.

إضراب سنة 2004:

تبادلت السجون الرسائل فيما بينها حول الإضراب عن الطعام، وكيف السبيل لمواجهة هذه السياسة، وصدّ هجمة الإدارة ومصلحة السجون على مقدرات الأسرى

وإنجازاتهم؟ وأصبح سجن جلبوع عنواناً للمعركة، وأكدنا، من خلال رسائلنا، أن قيادة الإضراب تتمثل في ثلاثة سجون، هي صاحبة الحل والعقد، وهي: نفحة، وعسقلان، وهدريم، واخترنا عسقلان لسمعته الماضية، وحتى نؤكد أنه قائد في هذه المرحلة، وحتى لا يخذلنا ما دام هو في موقع المسؤولية، ولأننا متخوفون من أن تؤثر بعض قياداته الراحة والدعة على دخول هذه المعركة، وهذا ما حصل عندما دخلنا الإضراب.

بعث إلينا معتقلو جلبوع برسالة يستغيثون بنا، فكان علينا النصر، واتفقنا مع السجون أن تبدأ خطوتنا بتاريخ 2004/8/15، مع العلم أن الفصائل الأخرى حددت تاريخاً آخر هو 2004/8/25.

في سجن نفحة، جاءنا قائد المنطقة الجنوبية في مصلحة السجون، واسمه آفي فاكنين، يهودي مغربي، واجتمع مع لجنة الحوار في السجن، وقال: أنصحكم ألا تخربوا عليكم هذا السجن، فأنتم دون السجون وضعكم ممتاز، فالمطبخ في أيديكم، والمغسلة. وهذان أهم مرافق السجن، وصحيح أن بقاء المطبخ على الخصوص في أيدينا مهم جداً وحيوي، وبدلاً من أن يستلمه سجناء جنائيون لا يعرفون النظافة، حتى بلغ بهم ذات مرة، أن يحركوا الطعام على النار، بمكنسة الأرض. وفعلاً كانت السجون الأخرى تحرض على نفحة، وتقول لإداراتها: سجن نفحة وضعه من النواحي التالية كذا، وكذا؛ ويعني أن الحركة والمعيشة والطعام في نفحة تفتقر إليه السجون الأخرى، وهذا كان يخرب علينا؛ لأننا كنا ناجحين في حواراتنا مع إدارة السجن. وبلغت بنا الأمور في هذا السجن، وفي سجون أخرى، أن نروّض السجانين، حتى الضباط منهم، ومنهم من جعل من تجارة الهواتف المحمولة باباً آخر لكسبه ورزقه، ومن السجانين اليهود والدروز من كان يحذرنا من التفتيش.

نعم، لما فشل قائد المنطقة الجنوبية في إقناعنا بألا ندخل الإضراب، قلنا له: هذه معركة السجون دون استثناء، ونحن جزء منها، ونحن ندرك تميز نفحة عن غيره من السجون. فقال لنا: الوضع ليس كالماضي، فالحكومة الإسرائيلية متطرفة، شارون رئيس الحكومة، وتساحي هنغبي Yitzhak "Tzachi" Hanegbi وزير الشرطة والأمن الداخلي، وليس من السهولة أن يستجيبوا لمطالبكم. لكن تجارب الماضي علمتنا أن العَصِيَّ فيهم كسرناه؛ لأنه لا ضعيف مع الله، لقد هزمنا في هذه المعارك ديفيد ميمون وغابي عمير، وهما من العتاة في الإجرام، وقد كانا مديرين سابقين لمصلحة السجون.

كان ردنا واضحاً، وهو الدخول في الإضراب ونصرة معتقلي جلبوع وباقي السجون. وتأكيداً على سجن عسقلان، كانت لنا فرصة اللقاء مع الأخ أبي الناجي، مسؤول فتح في عسقلان، وممثل المعتقل، فقد جاء إلى سجن بئر السبع لشهر من الزمان عقوبة، والتقاه إخوانُنا، ومنهم المجاهد حسن المقادمة، ودار الحديث طويلاً حول الإضراب، وأبلغه بموقفنا وموقف السجون، قائلاً: إنَّ سجن عسقلان لا غنى عن مشاركته... وهو يشكل أهم أضلاع المثلث. فرجع أبو الناجي إلى عسقلان، وهو يحمل ما اتفقت عليه السجون، وأعطى موافقته للأخ حسن المقادمة، ولا أدري أكان ذلك عن قناعة أم عن استحياء، كما تبين لنا فيما بعد.

قبل أيام من الإضراب، جاءنا مدير السجن كذلك، وحذرنا من دخول الإضراب ثانية، وقال: لا تخربوا على أنفسكم. لكنهم في الإدارة ومصلحة السجون أقدموا على خطوات استباقية، فنقلوا من نفحة 70 كادراً من حماس، وفيهم بعض الإخوة من الجهاد الإسلامي، وذهبوا بنا إلى قسم العزل في بئر السبع، وكنت في الخامسة والخمسين من عمري، ومضى علينا أربعة أيام في العزل. ويوم الأحد 15 آب/ أغسطس، دخلنا الإضراب، وتمّ تبليغ الإدارة بهذا الشأن، وجاءت إدارة السجن في جميع السجون على الأخضر واليابس، وحتى الملح تمت مصادرته. ثمّ مع الظهيرة في حملة لها أتت على جميع السجون، وعزلت اثني عشر مسؤولاً عزلاً انفرادياً في سجن أفُق المجاور لسجن هدريم. فمن حماس كان الإخوة توفيق أبو نعيم، وروحي مشتهى، وحسن المقادمة، ويحيى السنوار، وعبد الخالق النتشة، ومحمد أبو طير، ومن فتح الأخوان حسام خضر، ويوسف ارشيد، ومن الجهاد الإسلامي الأخوان طاهر الزيود، ووائل دردونة، ومن الشعبية وليد دقة، والمستقل سمير قنطار، وهو محسوب على الجميع. أما أنا وتوفيق أبو نعيم، وحسام خضر، فقد عزلونا عزلاً انفرادياً، كل واحد منا في زنزانة، توفيق في زنزانة، وحسام في زنزانة، وأنا في زنزانة، وبقية الإخوة في غرفتين صغيرتين. وتمّ الإضراب إلا عن الماء من أول يوم، وسبقت معركة الإعلام معركة الأمعاء، وخرج علينا الحاقد تساحي هنغبي، وزير الأمن الداخلي، بتصريح استفز العالم كله، لما قال معلقاً على الإضراب: "اتركوهم يموتون"، ثمّ تراجع عن تصريحه الفاشي.

دخلت السجون جميعُها الإضراب من أول يوم، إلا عسقلان دخل بعد خمسة أيام، وجلبوع بعد يومين أو ثلاثة، ولا بأس، لكن المطلوب أن يبقى عسقلان في المعركة. وما مضى على إضراب عسقلان ثلاثة أيام، إلا والأخبار يتناقلها السجانون أن عسقلان فكّ

إضرابه. فقلنا هذا أول شرخ؛ لأن الإدارة ومصلحة السجون، اجتمعوا مع أبي الناجي، وأحمد (أبي العوض)، وفيصل أبو الرب، ومنّوْهم بوعود كاذبة، وصدقوهم، والأمر لا يحتاج إلى تصديق؛ لأن هؤلاء المسؤولين لا نية لهم في الإضراب ولا عزيمة لهم عليه. بينما أقدمت إدارة السجن على عزل الأخ عبد الحكيم حنيني، وشباب من حماس، حتى يكونوا غائبين عن صورة ما يجري في عسقلان، وحتى لا يؤثر صمود عبد الحكيم حنيني وإخوانه من حماس على اتفاق مصلحة السجون مع أبي الناجي، وأبي العوض، وفيصل أبي الرب.

مشى بنا الإضراب الأسبوع الأول، وجاءنا ضابطان على مستوى قيادة مصلحة السجون، وهما إيلي غابزون وإسحق غباي، وقالا لنا إلى متى هذا الإضراب؟ وإلى أين أنتم سائرون؟ فقلنا لهما حتى النهاية، وحتى تتحقق مطالبنا. ثمّ انصرفا، ولأسبوع آخر في عزلنا هذا، ونحن ثابتون، ثبات الشم الرواسي؛ لأننا لليوم التاسع عشر، ونحن نصلي واقفين. وزادُنا الماء ولا شيء سواه. ونزلت أوزانُنا... وقلت لإخواني: العزيمة ماضية وضربت لهم مثلاً: أن الأخت عطاف عليان أضربت أربعين يوماً عن الطعام، وعلينا أن نصل أولاً إلى أربعين يوماً، وبعدها يخلق الله ما يشاء. وجاءنا غباي مرة أخرى، وقال: أنتم على أبواب رمضان، فهل سيدخل عليكم رمضان وأنتم مضربون؟ قلت له: نعم، سنواصل إن شاء الله.

بعد أسبوعين رحلونا إلى سجن الجلمة، ووضعونا في غرفتين، وأجروا لنا الفحوصات في عيادة السجن، منها فحص الضغط، ومعرفة الأوزان، والقلب أحياناً. وكان سروري عظيماً بأن نزل وزني من 85 كغ إلى 72 كغ. وحمدت الله على ذلك، لكن ضرره كان كبيراً على قوة النظر، وعلى نمو الشعر، فقد يكون الإضراب سبباً في عجز النظر، وتساقط الشعر، وهذا ما حصل معي.

توالت زيارات ضباط مصلحة السجون، وفي السجون الأخرى يكذبون على إخواننا المضربين ويقولون لهم: أنتم مضربون، والشيخ أبو طير فكّ الإضراب، وهو يتناول الطعام، لكن هذه الأكاذيب والألاعيب لا يصدقها السجناء، وكل ذلك كان حرباً نفسية ليفتوا في عضد المضربين.

ضباط مصلحة السجون تضايقوا، وهددوا بتفريقنا، وهذا لا يضيرنا، فنحن في غربة وفي عزلة. لكن الرأي العام في الخارج متلاحم معنا، ووصلت أخبار الإضراب إلى

مسامع ملك الأردن، عبد الله الثاني، ورئيس مصر السابق حسني مبارك، وتحدثا إلى الإسرائيليين بهذا الشأن. وفي اليوم السابع عشر من الإضراب، أو الثامن عشر، قام المجاهدون من كتائب القسام بعمليات نوعية، نفذها استشهاديون في مدينة بئر السبع، فأوقعت هذه العمليات قتلى وجرحى في صفوف الإسرائيليين، وعنوان هذه العمليات هو الانتصار لإضراب الأسرى. وجنَّ جنون الاحتلال، وجاء قائد مصلحة السجون وحاشيتُه، وفاوضنا طويلاً على فكّ الإضراب. والمصيبة أنّ مِنْ بيننا، دون تحديد اسمه، قال متسائلاً بيني وبينهم: إلى أين نحن ذاهبون؟ وأراد الجواب مني، فقلت له: ولماذا دخلت الإضراب؟ وقال لي الأخ أبو إبراهيم السنوار: "يا شيخ، إذا لم تخذل القيادة القاعدة، فالقاعدة مستعدة للعطاء"... وهذا صحيح من خلال التجربة. قلت: وتوفيق معي في الرأي، نواصل الأربعين يوماً مهما كانت التحديات، وقال توفيق لن نفك الإضراب قبل أن نحصل على التلفون. وخرج الجميع، بعد تشاور وضغط من مصلحة السجون، أن يعودوا إلى تنظيماتهم، وإلى السجون التي خرجوا منها، ويعرضوا عليهم تعليق الخطوة.

أما جلبوع، الذي كان الإضراب من أجله، ودخلنا حرباً لنصرته، فقد لحق بعسقلان، وفكّ إضرابه فقلت: ابتدأت مصلحة السجون بالمربعات واحداً فواحداً، عسقلان أولاً وجلبوع ثانياً، والله يعلم ما الثالث. ثمّ قلت: بأي وجه أعود إلى نفحة... بوجه الهزيمة والتراجع!! لا، لن أعود إلى نفحة إلا بالوجه الذي خرجت من أجله... وهو النصر، لقد خرجت على أمل النصر، ولن أعود بغير هذا الذي خرجت من أجله. فطلبت الذهاب إلى جلبوع، وبقيت على إضرابي لليوم التاسع عشر، ودخلت جلبوع وأنا مضرب. واجتمعت بالناس من جميع الفصائل، وشَكَوا لي قياداتهم، وبالرغم من أنهم جدد على الإضراب، وأول تجربة لهم، فإنهم لا يريدون فكّ الإضراب، ولولا أن قيادتهم قبلت فكّ الإضراب، تحت ضغط إدارة السجن ما فعلوا... ويا للأسف! وأما عسقلان، فقد باء بإثمه، وانتهى دوره القيادي، بعد أن كان الأول في قيادة السجون. وأما نفحة، ففك الإضراب في اليوم الثامن عشر... والذين واصلوا وبقي موقفهم صلباً هم الإخوة في سجنا بئر السبع (إيشل و"هو ليكيدار")، ولولا الخذلان لمضوا في الطريق حتى النهاية. وأما هدريم، فعلى دين غيره من السجون، فكّ الإضراب وانتهت هذه الجولة بالفشل والوعود الكاذبة. ومنذ سنة 2004، وإلى يومنا هذا لم تتعاف السجون من هذا الفشل. وأقولها بثقة، لو أن الناس صبروا قليلاً لانتصروا في معركتهم هذه؛ لأن العدو لا يصبر

على مثل هذه المعارك، وكانت الظروف لصالح الأسرى والإضراب، وهذه تجربة من التجارب. وحتى عسقلان لو كانت قيادته ناضجة لبقي في الصدارة، وكما قلنا آنفاً: "العاقل لا يبلغ من خصمه، ما يبلغ الجاهل من نفسه".

ذات مرة جاءني غَبايْ، وهو المسؤول عن استخبارات السجون، وعلى كتفه مقصان، فعرض عليّ، في أثناء الإضراب، الذهاب إلى معتقل مجدو، وهو يريد أن يخرجني من الإضراب إلى حيث الخيام والهواتف المحمولة، والتواصل مع الأهل في الليل والنهار، حيث أكون طليقاً، فقلت له: ما يجري على إخواني يجري عليّ، وقلت له: نحن 4,000 مضرب عن الطعام، ولو بقي منا 1,500 لكفى وقوداً لهذه المعركة. فقال: ما جدوى هذا الإضراب؟ وضربت له مثلاً بالجيش الإيرلندي.

وكان قد دار بيننا نقاشٌ داخلي، وللتاريخ، أن السجون التي قبلت على نفسها الهزيمة دفعت الضريبة أكثر من بقية السجون، التي آثرت الإضراب على الانكسار. وحول سؤال سألنيه أحد الإخوة في مجدو، من خلال لقاء ومحاضرة عن دور مروان البرغوثي في الإضراب، وقد شاع أنه كان يتناول الطعام، خلال أيام الإضراب، فقلت: كان الرجل في العزل كما سمعت، ولو كان حاضراً في الإضراب، لكان من المشاركين في اتخاذ القرار.

إنني لا أبرئ نفسي من مسؤولية هذه المرحلة، إذ الأحداث دفعت بي إلى الواجهة، وأنا لا أقبل على نفسي ذلك؛ لأنني لسنة ونصف قبل الإضراب، اعتزلت العمل التنظيمي، وقام على قيادة التنظيم إخوةٌ كرام، لكن نحن مَنْ في الواجهة مع مصلحة السجون.

أما موقفي أمام الله، فإني قد أعذرت بمواصلة الإضراب 19 يوماً، واستعليت على الفشل والانكسار، وقد ضاق العدو من هذا الصبر... ونحن على يقين من ديننا، أن النصر مع الصبر... ودخلنا الإضراب في 2004/8/15، وانتهينا منه بتاريخ 2004/9/4.

سجن جلبوع: محطة على الطريق:

بعد أن انفض الاجتماع مع مصلحة السجون، وبقينا على الإضراب إلى أن نصل السجون التي تقرر الرجوع إليها. رجع إلى هدريم الإخوة يحيى السنوار، وروحي مشتهى، وسمير قنطار، وحسام خضر، لا لفك الإضراب، ولكن ليعرضوا على بقية الأسرى، الحديث الذي دار في الاجتماع. فالذين رجعوا إلى هدريم وجدوه أقرب إلى فكّ

الإضراب. والإخوة الآخرون توفيق وحسن مقادمة، وأبو مكين، وطاهر الزيود إلى بئر السبع، ثمّ نفحة، في المهمة نفسها، وأما أنا والأخ عبد الخالق النتشة، ويوسف ارشيد، فإلى جلبوع ومعنا الرفيق وليد دقة.

حملتني "البوسطة" من الجلمة، الواقعة على السفوح الشرقية لجبل الكرمل، ما بين حيفا وجنين. حملتني إلى سجن جلبوع الحديث في بنائه، وهو إلى جوار سجن شطة، القديم منذ أيام الانتداب البريطاني.

دخلت إلى قسم (1)، واستقبلني أحبابنا من الأسرى أيما استقبال، وغمروني بعواطفهم النبيلة بشتى فصائلهم، أبناء فتح والجبهة الشعبية قبل أبناء حماس والجهاد الإسلامي. ويشهد الله أني تعاملت معهم كالوالد مع أولاده، فما كان بيني وبين أحد من هؤلاء من حواجز، إنما هو الاحترام. وما إن دخلت الغرفة التي سأحل فيها خلال هذه الأيام، وهي للإخوة في حماس، وفيها فاكهة القوم، عمار زهير أسعد، ابن أخت الشيخ حامد البيتاوي، والأخ أبو نبيل أشرف حسن، من قرية اسمها كفر ياسيف، قضاء عكا، وفيها فرسان خليفة من مخيم طولكرم، الذي ذكرته في خطبة جمعة، فقلت: نريدكم كما هي حال سلفنا الصالح، رهباناً في الليل وفرساناً في النهار، لكن ليسوا كفرسان خليفة، وإنما جعلوا من صهوات الخيل عروشاً لسيوفهم. وأصبحت هذه العبارة حديثاً للأسرى في السجون، يوقعون عليه بالتعليقات. ومن سكان الغرفة المجاهد رائد الحوتري، فرّج الله كربهم قريباً.

كل يوم جمعة أو سبت صباحاً، كان مدير مصلحة السجون "النتسيق"، يأتي لزيارتي في القسم الذي حللت فيه، ويدور الحديث الاجتماعي بيننا، لأكثر من ساعة في كل زيارة. وكنت أضيق ذرعاً من الحال التي وصلنا إليها، في ظلّ هذه السياسة التي أتت على كثير من إنجازاتنا التاريخية، وكان ثقيل الظل في زياراته؛ لأن من وراء ذلك التشفي، ولربما لقرب بيته منا.

مكثت في جلبوع قرابة أربعة أشهر، وزرت أقسامه، والتقيت كثيراً من الأحباب، من أبناء الحركة الأسيرة، وجمعتني الأيام مع المجاهد الحبيب، قائد معركة مخيم جنين الشيخ جمال أبو الهيجا، ونِعم الأخ هو، وهو (حتى كتابة هذه السطور) في العزل الانفرادي يقضي أيامه، ما بين مطالعة الكتب وقراءة القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، فرج الله كربه. والتقيت أمير القوم هناك أبا سلمان عايد خليل، وأبا إبراهيم سامي حسين، الذي

يتميز دوماً بالعطاء، والقرب من إخوانه، وهو قائدٌ ناجح، ومحاورٌ لَبِق رضي الله عنه وكذلك الأخ الحبيب عماد ريحان شقيق الشهيدين عاصم ومحمد ريحان[12].

في نهاية شهر كانون الثاني/ يناير من سنة 2004 جاءني غباي قائد الاستخبارات في مصلحة السجون، وقال لي: نريدك أن تنتقل إلى سجن مجدو؛ لأن مصلحة السجون في طريقها إليه، بعدما تمّ الاتفاق مع الجيش في نقل صلاحيات المعتقل إلى مصلحة السجون، على أن يسلمها المعتقل بعد شهرين. ونحن في مصلحة السجون نريد ألا نصطدم مع الأسرى هناك؛ لأن الجيش يدخل عليهم للعدد ببنادقه، وهذا مستحيل عند مصلحة السجون، ونريد من يفهمنا هناك، وعلى الخصوص من حماس. فقلت له: أنا موافق بشرط أن يرافقني خمسة من كوادر الفصائل... من فتح والجهاد والشعبية، فوافق على ذلك، وأخذت معي من حماس الأخ سامي حسين.

وصلنا معتقل مجدو، واستقبلنا هناك ممثل المعتقل، وهو من فتح، وساعدنا في نقل أمتعتنا وحمل عني كل شيء، فجزاه الله خيراً، وهو الأخ أبو مروان، من قلقيلية.

دخلت على خيمة لحماس، وكل خيمة تتسع لأكثر من عشرين مجاهداً، وأمير القوم الأخ المجاهد فازع صوافطة، وابن قضيتنا وضربتنا سنة 1998. والتقيت أناساً غاية في الاحترام والتقدير، لكن المأخذ على الأسرى في مجدو أنهم لما سمعوا بمصلحة السجون قادمة انتظروها كأنها بُعبع، فبدلاً من تهدئتهم والتخفيف من نية التصادم مع مصلحة السجون، وإذا بنا نرفع من معنوياتهم، ونشجعهم على الحذر من مصلحة السجون، وقلت المثل المشهور: "جبناك يا عبد المعين حتى تعين، وإذا بك تحتاج إلى من يعين".

على كل حال، كانت فرصة جيدة جداً لي لتبليغ ما أستطيع من خلال هذه المرحلة. إذ جاءني الأخ الحبيب رامي الأقرع من بلدة قبلان، وكان رئيساً للكتلة الإسلامية في جامعة النجاح، فقال لي: نريد منك في كل يوم ساعة، تحدثنا عن تجربتك من خلال هذا المشوار الطويل، فهذا تاريخنا وحرام عليه الضياع، فلا بدّ من توثيقه. فشكرت له ذلك،

---

[12] **عاصم يوسف ريحان (1981–2001):** ولد في بلدة تل جنوب غرب مدينة نابلس. التحق في جامعة النجاح الوطنية في نابلس. شقيق الشهيد محمد والأسير عماد. استشهد بعد تنفيذه لهجوم بالعبوات الناسفة والسلاح الناري بالقرب من مستوطنة عمانوئيل قتل وجرح فيه العشرات من الصهاينة، يوم الجمعة 2001/10/12.

محمد يوسف ريحان (1974–2001): ولد في بلدة تل جنوب غرب مدينة نابلس. نشط في كتائب القسام ضمن مجموعة الشهيد ياسر عصيدة، واستشهد في اشتباك مسلح بعد اقتحام الصهاينة لقريته يوم، 2001/10/12. ولحقه للشهادة أخاه عاصم الذي نفذ عملية استشهادية.

وقلت هذه فرصة ثمينة، طالما انتظرتها؛ لأن مصلحة السجون فيما مضى، كانت تلاحق أوراقنا وتصادرها، وهذا ما حال دون كتابتها وتوثيقها يومياً... فوجدت في ذلك فرصة. وبدأت معهم بمحاضرات يومية، ورامي يكتب هذه المذكرات، وهو رضي الله عنه مَنْ بَوبَّها؛ حتى انتهيت منها، وقد كتب منها نسختين، واحدة عنده، والأخرى عندي.

لقد شاهدت العجب في سجن مجدو، فالجرذان من حولنا، والقطط لا تجرؤ على أن تعترضها، تصحو وتنام على خشية منها، وشاهدت قطاً لا ينام إلا على صدر صاحبه، الأخ المجاهد سليم أبو عرة، الأنف على الأنف يا سبحان الله! صحبة عجيبة. وفي مجدو مكتبة لا تجدها خارج السجن، فمنْ يقرأ؟ وكنت أخطب الجمعة في الناس، ولا أحيد عن تجديد الأمل عندهم، وأن الطريق لنا، ولن يكون لغيرنا.

وجاءني قبل أيام من الإفراج الناطق باسم مصلحة السجون واسمه عوفر، وتجاذبنا أطراف الحديث عن السجن، وعما تأتي به الأيام القادمة، وعن الانتخابات التشريعية. وقد جعلنا من ذلك في السجون موضع نقاش، وخرجنا بتوصية المشاركة في الانتخابات التشريعية، كجزء من القرار أو الإجماع الرباعي: الخارج، والضفة، وغزة، والسجون. وزارنا من وزراة الأسرى، الأخوان هشام عبد الرازق الوزير السابق للأسرى، وسفيان أبو زايدة الذي خلفه في الوزارة. ودار الحديث حول التهدئة والانتخابات، وأنهم حريصون على مشاركتنا في هذه العملية.

وقبل الإفراج كذلك، جاء قائد مصلحة السجون وحاشيته لزيارتي مودعاً، وطلب مني زيارة لبيتي فوعدته. ولما خرجت وذهبنا للانتخابات، وقد حققنا فوزاً كاسحاً فيها، اتصل بي إسحق غباي ومدير مصلحة السجون لزيارتي في البيت، فشاورت أحد الإخوة فلم يستحسن ذلك فاعتذرت لغباي. وتضايقت من تصرفي هذا؛ لأنني أخلفت بالوعد.

قبل الإفراج بيوم، اتصل بي عن طريق الهاتف المحمول من الخارج الأستاذ حسن القيق، رحمه الله، فقال لي: أخي أبا مصعب. قلت: نعم، قال: الرجاء ألا تصرح للإعلام شيئاً عن الانتخابات، واعذرني لأني لن أكون غداً مع إخوانك في استقبالك أمام السجن. فقبلت منه ذلك، وقلت: سمعاً وطاعة. ولما اتصل بي استغربت منه ذلك؛ لأنه في العادة لا يتصل على السجن، ولم تكن له سابقة. وفي البداية، بالرغم من أني أعرف صوته، سألت: مَنْ المتحدث؟ فأجاب: أبو سليمان، فرحبت به بكلمة أستاذي، وهو أستاذي

بحق. ومع ظهيرة ذلك اليوم، وكان الإخوة قد دعوا أبناء الفصائل لحفلة وداع تكريماً لي، وإذا بإدارة السجن تبلغني بقرار نقلي إلى سجن هدريم، فضربت أخماساً بأسداس؛ لأن في النقل خوفاً من الإداري بعد هذه السنين. فحزمت أمتعتي ورحلت في "بوسطة" خاصة، عربة ترانزيت إلى سجن هدريم، ونمت ليلتي في الزنزانة، ولم ألتق أحداً هناك. وفي الصباح انتظرت الإفراج، وعلى الرغم من أن الإدارة هناك قالت لي: اليوم تخرج من السجن، لكن تأخر الوقت، وقد طال الانتظار، ونمت، ثمّ استيقظت ولما تَحِن الساعة، فذهبت أفكاري وظنوني إلى السجن الإداري. وقريباً من الساعة الرابعة مساءً، وإذا بطارق يطرق عليّ باب زنزانتي، ويقول لي: هيا بأمتعتك، فقد حضر المدير، وهو ينتظرك للتوقيع على الإفراج، خرجت إليه وهو في ساحة داخلية للسجن، حيث وَقَّع على ورقة الإفراج، فطلبت منه ورقة للطريق... وقد يئس أهلي من هذا الانتظار، فقال: أهلك في الخارج ينتظرونك، وما إن صرت خارج السجن، وإذا بالقدس ورجالها ينتظرون. وتدافع الناس، وهم حمولة باص سياحي، خلا السيارات الخاصة. وسلمنا على الجميع، وفيهم الأستاذ محمود فواقة، والشيخ حامد أبو طير، والشيخ جميل حمامي، والمهندس خالد أبو عرفة، والمجاهد أحمد عطون، ووالدهُ أبو أحمد، والأخ يعقوب أبو عصب، وجزى الله الجميع خير الجزاء. رحّبوا بي وسلّمت عليهم، وركبت الباص مع هذا الجمع، وفي الطريق تحدثنا والشيخ جميل، والشيخ حامد، والشيخ إبراهيم حمادة، وكان حديثنا مشحوناً بالعاطفة الأخوية. وسارت بنا القافلة حتى وصلنا قريتي أم طوبا مع الأذان لصلاة المغرب. كان ذلك يوم 2005/6/5.

Sidi ‘Umar: The Memoirs of Muhammad Abu Tair About Resistance and His 33 Years in the Israeli Jails

هذا الكتاب

يسجل هذا الكتاب ذكريات مسيرة طويلة لشيخ مجاهد، وشخصية إسلامية وطنية، برزت في سبعينيات القرن الماضي كأحد رموز المقاومة من أبناء حركة فتح. ثم أصبحت أحد أبرز مؤسسي الجماعة الإسلامية وحركة حماس في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

في هذا الكتاب، يشرح الشيخ محمد أبو طير تجربة 33 عاماً في سجون الاحتلال، ومواقفه ومواقف الحركة الأسيرة من القضايا الوطنية وهموم الأمة المختلفة. ويسجّل جزءاً مهماً من تاريخ الأسرى في سجون الاحتلال، وخصوصاً أسرى حماس، وما رافق ذلك من معاناة في السجون ومواجهات مع السجّانين. كما يتعرض لعلاقات أسرى حماس بالأسرى من باقي الفصائل الفلسطينية، وما رافق ذلك من حالات تعاون أو شدّ واحتكاك.

وتبرز في هذه الذكريات جوانب من تجارب العمل العسكري المقاوم الذي خاضه أبو طير من خلال فتح، ثم على مدى زمني أوسع من خلال حماس. بالإضافة إلى تجربته في العمل السياسي، وانتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية.

ويسر مركز الزيتونة طباعة هذا الكتاب الذي يخط شهادة وحكاية الشيخ أبي طير، شيخ بيت المقدس، الذي عُرف بين إخوانه بـــ"سيدي عمر"؛ ليكون أحد أهم ما صدر من كتب في تجربة الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ISBN 978-9953-500-62-1

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net